



القسم الأول

الدراسة

Obeyikandi.com

obeikandi.com

١ - الخليل بن أحمد .. سيرة وعطاء

قليل من يعيشون في ذاكرة التاريخ بهذا الحضور القوى المتميز سلوكاً راقياً وعلماً مفيداً لمدة أربعة عشر قرناً مضت من عمر هذا الزمان ، وقليل من يتفق عليه الناس بهذا القدر الكبير من المديح وعبارات الثناء التي تدخل القلوب فتزداد حباً واحتراماً له ، وقليل من أعطى بهذا السخاء فأبدع ، واكتشف فأجاد واعتزل الناس وهم مشغولون به ، وقليل من اتصف بهذا التدبّر العميق والزهد المفيد وتلك السماحة العالية ، وهذه النفس النقية السامية والحكمة الواعية وهذا التأثير المستمر في أبناء العربية ، وقليل من أصبح ظاهرة يقف الناس حولها كل آن ، وقليل من كان له تلك النظرة الثاقبة ، ما نظر إلى علم إلا واكتشف فيه شيئاً . وقليل من كان أبنياً شامخاً مع حاجته الواضحة .

ذلكم هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي يعدّ على رأس هؤلاء جميعاً - إن وجدوا - مؤصل علم النحو العربي وواضع مصطلحاته ، وباسط مسأله ، ومسبّب علله ، ومفتّق معانيه ، أستاذ أهل الذكاء والفطنة ، مكتشف علمي العروض والقافية، الموسيقى، الرياضى، المعجمى ، المحدث النحوى اللغوى .

شغل الخليل الناس بخلقه وعلمه وتراثه الذى تركه على مدى خمسة وسبعين عاماً ، منذ ولادته عام مائة من الهجرة إلى وفاته عام خمسة وسبعين ومائة ثم شغل من بعده بعلمه الوفير واكتشافاته المفيدة وتاريخه المشرف ، وأخلاقه الحميدة . لم أعرف أحداً نال كل هذا الحب والإعجاب والتقدير من كل من قابلهم فى حياته من أساتذته أو تلاميذه أو المعاصرين له وكل من تحدّثوا عنه من مترجمين ودارسين لكتبه وعلمه من المعاصرين إلى حدّ يصل

أحياناً إلى حيرة القارئ ودهشته مما يقال حباً وإعجاباً بعلمه وسلوكه واحتفاء بحياته وتدينه وزهده ، ولنستمع إلى سفيان الثوري حينما يقول ^(١) : من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد ، وفي معجم الأدباء ^(٢) . « يُروى عن النضر بن شميل أنه قال : كنا نمثل بين ابن عون والخليل بن أحمد أيهما تقدم في الزهد والعبادة فلا ندرى أيهما تقدم ، وكان يقول : أكلت الدنيا بعلم الخليل وكتبه وهو في خص لا يُشعرُ به » .

وإذا كان النضر بن شميل تلميذه يعترف بقيمته العلمية الكبيرة وتدينه وزهده ، فإن أستاذه أبا أيوب السخيتاني لم يبتعد عن ذلك المديح للخليل حيث عرف أبو أيوب حق الطالب المجد وقدّر ذكاء الخليل « وإذا بالخليل يصبح أخص تلامذته وأقربهم إليه . ولا يمضي القليل من الزمن حتى يعلم الخليل من السنة والحديث أكثر مما يعرفه كل أصحاب الشيخ ، كان الخليل يسمع من شيخه مديحاً كثيراً ويلقى منه محبة خالصة ، لكن ذلك كان يزيده تواضعاً واحتراماً ، كان شأن الخليل شأن معظم العلماء النابغين ، يصرفهم نبوغهم عن الاكتراث بالشهرة وعن الاحتفال الشديد بالنفس » ^(٣) .

لقد انقطع الخليل للعلم واتصل بالكثيرين من علماء العربية في مجالات مختلفة تتلمذ على أيديهم فكونوا ثقافته العربية الأصيلة ، فقد أخذ عن أبي عمرو بن العلاء (المتوفى عام ١٥٤هـ) وعن عيسى بن عمر الثقفي (المتوفى عام ١٤٩هـ) ، وروى الحديث والفقه والقراءات عن أيوب السخيتاني وعاصم الأحول والعوام بن حوشب وعثمان بن حاضر عن ابن عباس وغالب القطان وغيرهم ^(٤) .

(١) معجم الأدباء ٧٤/١١ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) قصة عبقري ، يوسف العش ، ص ١٤ .

(٤) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ٧٣/١١ .

واستمر الخليل فى طلب العلم من البوادرى إلى أن أصبح على هذا القدر الكبير من المعرفة والتحصيل والتأليف ، فقد « كان رحمه الله من أذكىاء التاريخ وعابرة العلماء ، صنع للعربية كثيراً وآناها من الفضل ما لم يؤتها أحدٌ من العلماء ، ابتكر العروض ، وخرج به إلى الناس علماً كاملاً ، فضبط به الشعر العربى وحفظه من الاختلال ، وابتكر طريقة أحصى بها مفردات اللغة وميّز بها المهمل من المستعمل ثم دوّن على هداها معجم العين » ^(١) ، ولم يخل الخليل بعلمه على تلاميذه فنهّلوا وعلّوا من ينابيعه إلى أن أصبح له مجموعة من تلاميذه ^(٢) الذين حملوا لواء العلم من بعده ، ومن هؤلاء تلميذه الوفى سيبويه شيخ النحاة فى عصره (توفى ١٨٠ هـ أو ١٨٣ هـ) والنضر بن شميل (توفى ٢٠٤ هـ) وأبو مفيد مؤرّج السدوسى (توفى ١٩٥ هـ) ، وعلى ابن نصر الجهمضى والأصمعى (توفى عام ٢١٧ هـ) والليث بن المظفر وأبو محمد اليزيدى (توفى عام ٢٠٢) ، لقد أثر الخليل تأثيراً كبيراً فى علوم العربية بترائه المعرفى الذى تركه وبتلاميذه الذين اقتفوا نهجه العلمى فهو - كما يشير بعض الكتاب - باعث نهضة العرب ورافعهم إلى مدارج العلم . يقول الدكتور هادى حسن حمودى ^(٣) : « حقاً إن أعمال الخليل كانت (نهضة) بكل ما فى كلمة النهضة من معان . . فهو الذى أنهض الأمة ، ونقلها من خال إلى حال وأخذ بيدها فى مدارج العلم والعمل النافع . . فكوّن مجموعة من الطلاب الذين أصبحوا علماء رأسوا الأمصار فى العلم والتف حولهم المريدون يأخذون عنهم ، ويتطورون إلى يوم الناس هذا وفى جميع البلدان العربية أو المهمة بلغة العرب وتراثهم وهم ما أخذوا إلا علالة من علم الخليل ابن أحمد الأزدى وما تطوراوا إلا بنهجه الذى سنّه لهم » .

(١) سيبويه إمام النحاة ، على النجدى ناصف ، ص ٩١ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٧٤ ، ٧٥ ، ٢١٥ . معجم الأدباء ٧٣/١١ . وفيات الأعيان ٣/٤٦٤

٣٠٤/٥ ، ١٨٤/٧ . نزهة الألبا ، ص ٧٥ ، ١٠٠ .

(٣) الخليل وكتاب العين ، ص ١٦ .

وسواء ولد الخليل فى عُمان على شاطئ الخليج العربى كما تشير بعض المراجع ^(١) ، أو ولد فى البصرة ، كما تشير بعض المراجع الأخرى ^(٢) ، فالمؤكد أنه أزدى يحملى عربى أفاد العربية بعلمه ومنهجه الكشفى لخبائى النحو العربى ، والعروض وعلم المعاجم ، وربما لعلم الموسيقى أو علوم أخرى ضاع ما كتبه فيها ضمن ما ضاع من كتبه التى ذكرتها كتب التراجم ، وهى كثيرة لم يصلنا منها إلا القليل ، وضاع معظمها ، وجاء القليل من أفكاره عن طريق هذا القليل الذى خرج إلى النور وكذلك عن طريق تلاميذه الذى نقلوا جزءا من فكره ، كما فعل سيبويه فى الكتاب . وأعمال الخليل المنسوبة إليه كثيرة ^(٣) منها : كتاب العين ، والنغم ، والإيقاع ، والعروض وكتاب النقط

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤٣٦/٨ ، أعلام العرب فى العلوم والفنون ٦٩ ، إتحاف الأعيان فى تاريخ بعض علماء عمان ٥٤/١ .

(٢) الأعلام ٣١٤/٢ . كتاب الخليل بن أحمد لعبد الحفيظ أبو السعود ص١٣ . وفى معجم الأدباء ٧٣/١١ يشير ياقوت إلى أنه بصرى دون أن يتكلم عن ولادته ونشأته الأولى . كذلك فى شذرات الذهب ٢٧٧/١ . غير أن ما ورد فى « نور القبس » ص٥٦ ربما كان مرجحاً أن الخليل من عمان وذلك لأنه نقل نصاً عن الخليل يقول فيه : « قدمت من عمان ورأى رأى الصُّفْرى ، فجلست إلى أيوب بن أبى تيممة (السخنيانى) فسمعتة يقول : إذا أردت أن تعلم علم أستاذك فجالس غيره فظننت أنه يعينى ، فلزمته ، ونفعنى الله به » . وانظر (عبقرى من البصرة) للدكتور مهدي المخزومي ص٢٥ . ويقول سعيد الصقلاوى فى كتابه (شعراء عمانيون) ص١١٥ : « وأما مولده ونشأته فمسألة دار حولها خلاف كثير حيث قيل إنه ولد بعمان سنة ٨٦هـ أو ٩٦هـ أو ١٠٠هـ أو ١٠١هـ فى منطقة ودام من ساحل الباطنة ، وهاجر إلى البصرة طلباً فى العلم والاستزادة منه ، وهو فى مراحل طفولته حيث كانت البصرة محط العلم والأدب والفكر ، وهناك شبَّ الخليل بن أحمد ، وتشربت عروقه وحواسه به حتى صار علماً من الأعلام وحجة فى الأقوام ، وسمى بالبصرى ؛ لأن مذهبه النحوى كان بصرياً ، . أما الرواية الأخرى فتناقض سابقتها تماماً حيث تقضى بأن الخليل ولد بالبصرة وبها نشأ وتلقى سائر العلوم ، وهو من أهلها ، ومن هنا جاءت تسميته بالبصرى فهو بصرى المولد والمنشأ » ، وكلام سعيد الصقلاوى يطلعننا على تراحم الروايات المختلفة حول ولادته وحتى لو تم الترجيح لرواية ما ، فإنه ظن يعوزه الدليل .

(٣) الأعلام ٣١٤/٢ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٣٦/٨ ، مكانة الخليل فى النحو العربى ٣١-٣٥ ،

الخليل بن أحمد ، عباس أبو السعود ١٥١ .

والشكل ، وكتاب الشواهد ، وكتاب فى العوامل وكتاب الجمل ، وكتاب فائت العين ، والمعمى ، وجملآ آلات العرب ، وكتاب فى معنى الحروف ، وكتاب شرح صرف الخليل وكتاب التفاحة فى النحو كما أشار تقرير البعثة المصرية فى اليمن ^(١) ومنه نسخة مخطوطة هناك .

وليس مقصدنا بالحديث الآن أن نقدم ترجمة لعالم العربية الخليل ، فهناك كتب كثيرة تناولت حياته بالتفصيل ، وهى حياة مليئة بالكفاح العلمى والجهاد فى سبيله ، وهو أكبر من أن تضم سيرته وحياته كتاب واحد ، لهذا كان غرضنا أن نقدم هذا التمهيد الذى يكشف عن ملامح شخصيته ، وذلك لإمكانية المقارنة بين ما ورد عنه ، وما يمكن أن تقدمه النماذج التى مثل بها فى منظومته النحوية من ملامح حياته تدينًا وزهدًا وورعًا وحكمة ، وما يمكن أن تقدمه تلك النماذج من ملامح اجتماعية لحياة الخليل .

٢- شخصية الخليل من خلال منظومته

تشير كتب التراجم إلى أن الخليل كان زاهدًا فى الحياة فقيرًا لا يأخذ العلم وسيلة للتكسب ، فابن العماد الحنبلى يصفه بأنه « كان من الزهد فى طبقة لا تدرك حتى قيل إن بعض الملوك طلبه ليؤدب له أولاده فأتاه الرسول وبين يديه كسرٌ يابسة يأكلها فقال له : قل لمرسلك مادام يلقى مثل هذه لا حاجة به إليك ولم يأت الملك » ^(٢) ويقول صاحب كتاب أعلام العرب ^(٣) : « انقطع الخليل إلى العبادة والزهد فاكتفى من العيش بالقليل حتى قال النضر بن شميل عنه : « أكلت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه ، وهو فى خُص لا يشعر به » ، وقد نقل ابن خلكان قول النضر بن شميل عن الخليل أنه لم يكن يقدر على

(١) الأعلام للزركلى (هامش) ٣١٤/٢ .

(٢) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ، الجزء الأول ، ص ٢٧٦ .

(٣) عبد الصاحب عمران الدجيلى ، كتاب أعلام العرب فى العلوم والفنون ، ص ٦٩ .

فلسين ، وأن الخليل كان يقول : «إنى لأغلق علىّ بابى فما يجاوزه همى»^(١) وهذه الصورة نفسها من الوحدة والانقطاع عن الدنيا هي التي يصورها ياقوت الحموى^(٢) بل إن أحد المؤرخين^(٣) يصفه بأنه كان أشعث الرأس شاحب اللون، كشف الهيئة متمزق الثياب متفلع (متشقق) القدمين كان يخرج من منزله فلا يشعر إلا وهو فى الصحراء ولم يردّها لشغله بالفكر .

وإذا كان الخليل زاهداً متقشفاً عن متاع الدنيا الزائل لا يلقى لمباهجها بالاً ولا يقيم لزخارفها وزناً ، يرفض أن ينغمس فى ترك الدنيا ومساوئ نعيمها ، مؤمناً بزوال لذائذها وانقطاع أسبابها يرغب عنها خداعاً زائفاً ومتعة عاجلة عابرة وحطاماً فانياً . أقول إذا كان الخليل بهذه الدرجة من الزهد فلا أظن أن يترك نفسه ليمزق ثيابه وتشقق قدماه ويشحب لونه وتغير رأسه ومن حوله تلاميذه ومحبوّه الذين أشادوا بعلمه وعبقريته ونطقوا بشهادات تمجد خلقه وورعه وتقواه . وأعتقد أن كل ما فى الأمر هو أن رجلاً بهذا الورع والتقوى يمكن أن تنسج حوله الحكايات تدليلاً على ذلك .

والحقيقة أننا عندما نقرأ عن الخليل وأخباره وذكائه وعبقريته ، ونتأمل أشعاره الواردة فى الكتب المختلفة ، ونماذجه التى مثل بها فى قصيدته النحوية فإننا نجد شخصاً مقدماً على الحياة متمتعاً بلقاء الناس فى حوارات علمية أو اجتماعية صاحب غزل رقيق وخيال خصب ، تسييه المرأة الحسنة بجمالها ، يتحرك قلبه لدواعى الهوى . ولعلنا فيما يلى نجد ما يفصح عن تلك الظاهرة الاجتماعية ، فهو ليس منعزلاً عن المجتمع ، حابساً نفسه ، إذ تعلّم الفصاحة

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس ، المجلد الثانى ص ٢٤٥ .

(٢) معجم الأدباء ١١/٧٢-٧٥ .

(٣) الشريشى فى كتابه (شرح المقامات الحريية) ص ٢١٣ ، وانظر النص فى الأعلام للزركلى فى ترجمة الخليل .

كان يقتضى منه فى بداية حياته السفر والترحال والمشافهة والمقابلة والأخذ عن الأعراب فى البادية ، وبعد ذلك عندما صار معلماً كان يلتقى بطلابه ومحبيه من الناس ، وربما أدى اتزانه وعدم حب العبث واللغو والانخراط كثيراً فى المسائل العلمية إلى القول والتأكيد على زهده الشديد ، يقول أحد المؤرخين : « وعكف على العلم يستخرج ويستنبط ويخترع فكان مضرب المثل فى عزوفه عن الدنيا وعكوفه على العلم » ^(١) .

ولعل تأكيد المؤرخين على زهده ورفضه للمال واكتفائه بالقليل كان من قبيل إيضاح أن الخليل ما كان يقف على أبواب الولاة طالباً ، أو يسعى لشهرة أو مال . ولعل ما ورد فى معجم الأدباء لدليل على ذلك . يقول ياقوت الحموى ^(٢) عن الخليل : « ووجه إليه سليمان بن علىّ والى الأهواز لتأديب ولده ، فأخرج الخليل لرسول سليمان خبزاً يابساً وقال : ما دمت أجده فلا حاجة بى إلى سليمان ، فقال الرسول : فما أبلغه عنك ؟ فقال :

أبلغ سليمانَ أنى عنه فى سعة .: وفى غنى غير أنى لست ذا مال
سَخَى ^(٣) بنفسى أنى لا أرى أحداً .: يموت هزلاً ولا يَبْقَى على حال
والفقرُ فى النفس لا فى المال نعرفه .: ومثلُ ذاك الغنى فى النفس لا المال
فالرزق عن قدرٍ لا العجز ينقصه .: ولا يزيدك فيه حول ^(٤) محتال »

هذه نفس أبية زاهدة لا تطمع إلا فيما يسدّ الرمق من الحياة لا تجرى وراء الكثير الفانى . فالخليل يفعل ذلك لا يخاف أن يقطع سليمان راتباً كان للخليل

(١) أعلام العرب ٦٩ .

(٢) معجم الأدباء ٧٥ / ١١ .

(٣) ويروى شحا ، وسخيت نفس عن الشيء : تركته ولم تنازعنى إليه .

(٤) حول : احتيال محتال .

عنده . ولنكمل القصة مع صاحب كتاب إتحاف الأعيان ^(١) حين يقول :
« وكان سليمان رتب له راتباً فقطعه عنه فقال :

إن الذى شق فمى ضامن .∴ للرزق حتى يتوفانى
حرمتنى مالا قليلاً فما .∴ زادك فى مالك حرمانى
فبلغت سليمان فأقامته وأقعدته فكتب إلى الخليل يعتذر وأضعف جائزته
فقال الخليل :

وزلة يكثر الشيطان إن ذكرت .∴ منها التعجب جاءت من سليمان
لا تعجبن لخير زلّ عن يده .∴ فالكوكب النحاس يسقى الأرض أحياناً

فرجل مثل الخليل له راتب ، وتضاعفت جائزته أو راتبه لدى سليمان لا
يمكن أن يكون بهذه الصورة العجيبة من التقشف والزهد وتشقق القدمين
وشحوب الوجه وتمزق الثياب إلى حدّ تلك الصورة المريبة . وكل ما حدث أنه
رجل صاحب كبرياء وكرامة أراد أن يحافظ عليها ، والصورة كما قال أحد
الباحثين ^(٢) : « أن زهده وعفة نفسه وعزته وإبائه . كل أولئك حال بينه وبين
الشهرة ، وقعد بصيته أن يطير حينذاك وبفضله أن ينشر ويذيع ، لأنه آثر أن
يغلق عليه بابه فما يجاوزه همه عن أن يقف على باب أمير أو والٍ يستندى
الأكف ويبذل من شممه وعزة نفسه ما يملأ جيبه بالنضار ، ويريق من ماء
وجهه ما يرفع منزلته عند الناس ويخفضها عند الله ، ويصلح من دنياه بقدر ما
يفسد من دينه » هكذا صور المؤرخون الخليل وإن كنا نرى فى أشعاره ما يمكن
- من خلالها - القول بأنه مع كل ذلك كان سعيداً بحياته يحيها مؤمناً بها
تفيض مشاعره للحسن والجمال ، ولنقرأ ما يقوله الخليل سواء كان القول من

(١) إتحاف الأعيان ٥٥/١ .

(٢) عبد الحفيظ أبو السعود فى كتابه : « الخليل بن أحمد » ص ٤٠ ، ٤١ .

خلال قصيدته النحوية أو أشعاره التي رويت عنه فى كتب التراجم والتاريخ ،
أو حتى أقواله المأثورة عنه . لنرى الجانب الآخر من صورة الخليل بن أحمد
الذى يقول فى منظومته :

وتقول إنى قد مررت بطفلة
بيضاء تستلب النفوس وتخلب
أبصرتها فغضضت عنها ناظرى
خوف القصاص وظلّ قلبى يرغب
ويقول :

وتقول إن رخت زينب صادقاً
يا زين إن البين فيه تشعب
ويقول :

عهدى بكلثم أو سعاد وأختها
والحى فى سعة ولما يشعبوا
رعوبتين خريدتين كأنّ فى
درعيهما الأترجّ حين يُطَيَّب
لا تجر مصرّاً مفرداً ما لم يكن
ألف ولام فى البلاد يركّب
ولدى الرباب مقرّ كل ملاحه
تسبيك حاسرة وحين تجلبب
ويقول :

والتاء إن زادت فخفض نصبها
ما عن طريق الخفض عنها مهرب
فتقول إن بنات عمك خُرَد
بيض الوجوه كأنهنّ الربرب

إن هذه الأبيات تدل على نفس تتمتع بالرضا وطمأنينة الحياة وهدوئها، نفس امتزجت بالحياة وبالبشر، ليست منعزلة أو منقطعة عن التواصل البشرى، والملاحظ أيضاً من خلال البحث فى تراث الخليل وأقواله أن المأثور النثرى عن الخليل يعطى هذا الانطباع، فقد نقل صاحب إتحاف الأعيان ^(١) عن الخليل قوله : «ثلاثة تنسينى المصائب: مرّ الليالى والمرأة الحسنة ومحادثات الرجال» بل وينقل لنا المؤلف نفسه شعراً للخليل يحمل رقة مشاعره قائلاً ^(٢) : «وللخليل ثلاثة أبيات على قافية واحدة يتفق لفظها ويختلف معناها وهى :

يا ويح قلبى من دواعى الهوى .: إذ رحل الجيران عند الغروب
أتبعتهم طرفى وقد أزمعوا .: ودمع عينى كفيض الغروب
بانوا وفيهم طفلة حرة .: تفتّر مثل أقاحى الغروب

والتأمل لتلك الأبيات وللبيت رقم ٢٠٩ من منظومة الخليل النحوية والذي يقول فيه :

وتقول إنى قد مررت بطفلة .: بيضاء تستلب النفوس وتخلب
أقول إن التأمل يجد نوعاً من الانسجام بين القولين ، فهو يقول « طفلة حرة » ، ثم يقول « مررت بطفلة بيضاء » فالطفلة جاءت رمزاً للمتغزل فيها فى الاثنين ولعل ذلك التوافق يؤدى إلى القول بأن ثبوت أحد النصين للخليل يثبت النص الآخر له أيضاً .

إن النماذج والأمثلة النحوية الواردة فى منظومة الخليل لدالة دلالة كبيرة على طبيعته التى يتحدث عنها المؤرخون ، فإذا كان ياقوت الحموى يشير إلى

(١) إتحاف الأعيان : سيف البطاشى ٦٦/١ . وانظر معجم الأدباء لياقوت الحموى ٧٢/١١ هامش .

(٢) إتحاف الأعيان ٦٥ / ١ .

أن الخليل كان يحجّ سنةً ويغزو سنةً ^(١) فإننا واجدون في قصيدة الخليل ما يجعلنا نوقن بالشق الأول حين يقول في المنظومة (البيت ١٩٩) :

فتقول من يزر النبي محمداً .: يكن النبي شفيعه يا موهب
كذلك عندما تتحدث كتب التاريخ عن تقواه وعبادته وأدبه وتواضعه
وجهاده فإنّ ذلك معناه أنه لم يعبأ بالحياة المادية ، وأنه اهتم بخدمة الدين
والعلم . يقول الدكتور مهدي المخزومي ^(٢) : « وكان الخليل من أهل الدين
الذين جاهدوا في سبيله ، وكان لجهاده في سبيل الدين ألوان . اصطبغ مرة
بالسياسة ، واصطبغ مرة بالعلم ، ولما لم تسعفه الظروف السياسية في كفاحه
السياسي انصرف إلى خدمة الدين عن طريق العلم ، وقد عكف على العلم
عكوف المتصوفين ، وانصرف إلى طلبه تاركاً الحياة المادية ، غير عابئ بجاه أو
منصب واعتزل في خصه مغلقاً عليه بابه » .

على أية حال يبدو أن حياة الخليل كان لها شقان :
الشق الأول من حياته كان الخليل فيه شاباً يخرج في طلب العلم يلتقى بالناس
يغزو سنة ويحج سنة ، ذا علاقات اجتماعية مختلفة ، وربما كتب بعض
غزلياته في هذه المرحلة .
الشق الثاني من حياة الخليل وهو مرحلة ما بعد ذلك ، وفيها كان الخليل زاهداً
عاكفاً على علمه مفكراً في وضع وابتكار ما ابتكره من علم العروض ومعجم
العين وغير ذلك من إضافاته اللغوية الجديدة .

لكن المؤكد أن الخليل في شقّ حياته لم ينجذب إلى اللهو والعبث
والمجون كما يفعل غيره شباباً وشيوخاً ، لم تستهوه مجالس الطرب والأنس

(١) معجم الأدباء ٧٤/١١ .

(٢) أعلام العرب ٦٩ ، أنحف الأعيان ٦٥/١ .

(٣) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، أعماله ومنهجه ، ص ٥٠ .

والشراب فقد كان مشغولاً بأمور أهم من هذا العبث الصبياني الذي تهادى فيه أقرانه ولداته من سكان البصرة ممن لم يكن لهم شأن بعد ذلك ولم نسمع بهم .

وتلك المرحلة الثانية التي يتسم فيها الإنسان بالوقار والنضج والحلم هي مرحلة ما بعد الأربعين ، وهي تلك المرحلة التي يقول عنها الخليل في منظومته النحوية (البيت ١٨٤) :

قطنى وقدنى من مجالسة الأولى .: قد أتعبوا بدنى الضعيف^(١) وأنصبوا والخليل نفسه كان يقول^(٢) : « أكمل ما يكون الإنسان عقلاً وذهناً إذا بلغ أربعين سنة ، وهي السن التي بعث الله تعالى فيها محمداً ﷺ ، ثم يتغير وينقص إذا بلغ ثلاثاً وستين سنة ، وهي السن التي قبض فيها رسول الله ﷺ ، وأصفى ما يكون ذهن الإنسان في وقت السحر » .

هذه هي صورة الخليل العاقل الحليم الوقور الحكيم الذي كان يقول الحكمة في شعره ونثره ، بل حتى في تصرفاته كان حكيماً مع أصدقائه وأساتذته عند محاورته أو حتى سكوته ، وقد جاءت بعض النماذج في قصيدته النحوية دالة على ذلك . عندما يقول في البيت ٢٥٩ :

لا خير في رجل يعرض نفسه .: للذم لا . لا خير فيمن يغضب أو حينما يقول في البيت ٢٨٨ :

..... .: كل امرئ إن عاش يوماً ينكب

وفي البيت ٢٣٨ :

وعلام تظلمنا وتبخس حقنا .: والحق أحسن ما أتيت وأوجب

(١) لاتعنى « بدنى الضعيف » شحوب الوجه وتشقق القدمين وتمزق الثياب .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٢٤٥ .

والملاحظ أن نماذج الحكمة عند الخليل لم تخرج عن تلك النماذج التي رويت عنه في كتب التراجم والمؤرخين. فمن أشعاره التي رويت عنه قوله ^(١) :
وقبلك داوى الطبيب المريض .: فعاش المريض ومات الطبيب
فكن مستعداً لدار الفناء .: فإن الذى هو آت قريب
وأيضاً هو الذى يقول ^(٢) :

وما هى إلا ليلة ثم يومها .: وحول إلى حول وشهر إلى شهر
مطايا يقربن الحديد إلى البلى .: ويدنين أشلاء الكرام إلى القبر
ويتركن أزواج الغيور لغيره .: ويقسمن ما يحوى الشحيح من الوفر

وكل هذه أشعار تدل على حكمة وتعقل وفهم للحياة ، تدل على أن الخليل تمرس بالحياة ، كثيراً وخبرها قبل هذه العزلة التى فرضها على نفسه ، وعند لقائه ومحاوراته مع غيره لم يكن يجيب إلا بعد رويّة ولم يكن يدعى أن ما أتى به هو القول النهائى ، أو يتعرض لغيره من العلماء بسوء ^(٣) .

فقد حكى عنه صاحب إتحاف الأعيان قائلاً : « قال النضر بن شميل :
جاء رجل من أصحاب يونس إلى الخليل يسأله عن مسألة فأطرق الخليل يفكر
وأطال حتى انصرف الرجل ، فعاتبناه فقال ما كنتم قائلين فيها ، قلنا : كذا
وكذا ، قال : فإن قال كذا وكذا ، قلنا : نقول : كذا وكذا ، فلم يزل يغوص
حتى انقطعنا وجلسنا نفكر ، فقال : إن المجيب يفكر قبل الجواب ، وقبيح أن
يفكر بعده ، وقال ما أجيب بجواب حتى أعرف ما علىّ فيه من
الاعتراضات والمؤاخذات » ^(٤) أى حكمة وأى عقل هذا ؟ الرجل الذكى الذى

(١) معجم الأدباء ٧٦/١١ ، إتحاف الأعيان ٦٣/١ .

(٢) إتحاف الأعيان ٦٣/١ .

(٣) مكانة الخليل بن أحمد فى النحو العربى ، ص ٢٥ .

(٤) إتحاف الأعيان ٦٥/١ .

يقول : لا يعرف الرجل معلمه حتى يجالس غيره ^(١) . إنه حكيم من كلامه وأفعاله وحديثه ، كما أنه حكيم فى صمته وللتأمل ما يحكيه ابن العماد الحنبلى ^(٢) عن الخليل عندما يقول : « لما دخل الخليل البصرة لمناظرة أبى عمرو بن العلاء جلس إليه ولم يتكلم بشيء ، فسئل عن ذلك فقال : هو رئيس منذ خمسين سنة فخفت أن ينقطع فيفتضح فى البلد » . أى أدب هذا ؟ وأى حكمة بالغة فى صمته والتعليق عليه ؟ لقد حق أن يقال عنه إنه كان إماماً كبير القدر خيراً متواضعاً فيه زهد وتعطف ^(٣) .

أما نماذجه وتمثيله فى منظومته النحوية فهى دالة دلالة يقينية على تقواه ونفائه وحبه للعبادة ونماذج ذلك كثيرة يستطيع أن يلمحها القارئ للمنظومة ويكفى أن نقرأ قوله فى البيت ٢٣٤ :

وتقول لا تدع الصلاة لوقتها .: فيخيب سعيك ثم لا تستعتب
وفى البيتين ١٦٤ ، ١٦٥ يقول :

اخرج فأتهم وأنت بنادهم .: فانظر فأى مؤذنيك يشوب
فأجب ولا تدع الصلاة جماعة .: إن الصلاة مع الجماعة أطيب

إن هذه الأبيات دالة على صفاته التى حكى عنه وذكرت من ضمن صفاته الكثيرة ، فقد كان تقياً ورعاً زاهداً تهيمن عليه تقاليد العلماء الحقّة فيما يقوله أو يفعله ^(٤) ، يقول فى البيتين ١٢٧ ١٢٨ :

والأمر بالنون الخفيفة فاعلمن .: والنهى أصعب فى الكلام وأعزب
لا تعصين الله واطلب عفوه .: لا تشربن خمرًا فبئس المشرب

(١) السابق ٦٦/١ .

(٢) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٢٧٧/١ .

(٣) السابق نفسه .

(٤) مكانة الخليل بن أحمد فى النحو العربى، د. جعفر نايف عباينة ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

ثم يقول فى البيت ١٩٢ :

بعداً لجاحد ربه سحراً له .: يوم القيامة فى السعير يكبكب

وفى البيت ١٩٧ :

وتقول من يعمل ليوم معاده .: يسعد به وهو الحظى المنجب

obeikandi.com

ثانياً: المنظومة

١ - وصف عام لمنظومة الخليل

جاءت منظومة الخليل النحوية فى ٢٩٣ بيتاً من النظم الذى اقترب من الشعر فى لغته الرقيقة ، وصاغها الخليل على وزن عروضى يسمى « بحر الكامل التام » الصحيح العروض والضرب ، وتفعيلات هذا الوزن تأتى على الصورة التالية :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن .: متفاعلن متفاعلن متفاعلن
ضمت الكثير من أبواب النحو العربى وتركت القليل منها ، جاءت مقدماتها التى وصلت إلى ٢٦ بيتاً تمهيداً للقارئ وتوطئة نفسية له بدلاً من الدخول إلى النحو مباشرة . يقول فى أولها :

الحمد لله الحميد بمنّه .: أولى وأفضل ما ابتدأت وأوجب
حمداً يكن مبلّغى رضوانه .: وبه أصير إلى النجاة وأقرب
وعلى النبى محمد من ربه .: صلواته وسلام ربّى الأطيب
إنى نظمت قصيدة حبّرتها .: فيها كلام مونق وتادّب
لذوى المروءة والعقول ولم أكن .: إلّا إلى أمثالهم أتقرّب
عربية لا عيب فى أبياتها .: مثل القناة أقيم فيها الأكعب
تزهو بها الفصحاء عند نشيدها .: عجباً ويطرق عندها المتأدّب

إلى أن وصل إلى نهاية المقدمة وبداية الموضوع النحوى الأول قائلاً :

فإذا نطقت فلا تكن لحانة .: فيظل يسخر من كلامك معرب النحو رفع فى الكلام وبعضه .: خفض وبعض فى التكلم ينصب واستمر الخليل فى معالجة كثير من الأبواب النحوية ، حتى وصل إلى نهاية المنظومة وأنهاها بقوله :

النحو بحرٌ ليس يدرك قعره .: وعر السبيل عيونه لا تنضب فاقصد إذا ما عمت فى آذيه .: فالقصد أبلغ فى الأمور وأذرب واستغن أنت ببعضه عن بعضه .: وصن الذى علّمت لا يتشذب وبين المقدمة والنهاية عالج أموراً نحوية كثيرة بأسلوب يتسم بالسهولة والابتعاد عن التعقيد ، جاء متسقاً مع سهولة عرض القضايا النحوية فكأنه رجل عصرى يعيش معنا الآن بأسلوبه الذى يصل إلى متلقيه سريعاً وابتعاده عن الجدل النحوى .

هناك ملاحظة مهمة حول الآيات الأخيرة حيث يوجه الخليل نصيحته إلى متعلمى النحو قائلاً إن النحو بحر عميق لا يدرك قاعه ، وعر المسالك ، عيونه تفيض بغزارة ، وهو هنا يشير إلى المسائل الخلافية فى النحو والتعليقات ، وفلسفات النحو وتفرعات قضاياها ، إنه كالأمواج المتلاطمة فى بحار عميقة لا قرار لها . ومن هنا فإن على المتعلم أن يقتصد ، وأن يأخذ منه بحذر لأن الإفراط فى معرفة أصوله وفروعه له نتائج وخيمة لمن لم يتسلح للدخول إليه . أما الشادون من المتعلمين فعليهم أن يدخلوا إلى أبواب النحو برفق ، وهذا إرشاد صائب لمن شاء أن يتعلمه ، فبعضه يغنى عن بعض ، لكن المفيد أن تحفظ وتعى وتصون ما تعلمته فلا يستغنى عنه .

٢ - تحقيق نسبة هذه المنظومة إلى الخليل

هناك وسائل كثيرة للوصول إلى حقيقة نسبة أى عمل إلى صاحبه ، من هذه الوسائل المهمة ما أطلق عليه علماء أصول التربية « النقد التاريخى » ^(١) أو

(١) مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية والتربوية، تأليف لويس كوهين ، لورانس مانينون، ترجمة د.د. كوثر حسين كوجك ، د.د. وليم تاووضروس عبید، مراجعة أ.د. سعد مرسى أحمد ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ ، صفحة ٨٠ .

« الأدلة التاريخية » ^(١) ، ويقصد بها مجموع الحقائق والمعلومات التي تثبت صحة العمل المقصود بالدراسة ، والتحقق من صحة نسبته بحيث يمكن قبوله فى نهاية الأمر والثقة به ، والغرض من هذا النقد التأكد من صدق المصدر وصحة المادة الموجودة فى هذا المصدر والتي تكون موطن الدراسة ، ويكون الشك هو بداية الحكمة على حد تلك المقولة الشائعة ^(٢) ، وستخذ من هذا المنهج النقدي معياراً لنا فى البحث عن صحة نسبة هذه المنظومة إلى الخليل . هذا المنهج النقدي الذى ينقسم إلى نوعين رئيسيين : أولهما يعرف بالنقد الخارجى ، وثانيهما يعرف بالنقد الداخلى .

أولاً - النقد الخارجى :

يهدف هذا النقد إلى التحقق من صحة الوثائق من حيث انتسابها إلى صاحبها وإلى العصر الذى تنسب إليه ^(٣) ، ويهتم هذا النقد أيضاً بتأكيد أصالة البيانات الواردة وخلوها من أى زيف ، لهذا يوجه النقد الخارجى إلى الوثيقة وليس إلى ما تحويه من مضمون ، ويركز على التحليل الشكلى وليس على تفسيرها أو معناها بالنسبة للدراسة موضع البحث ^(٤) .

وينقسم النقد الخارجى إلى نوعين :

(أ) نقد التصحيح (ب) نقد المصدر

(أ) نقد التصحيح :

أما عن نقد التصحيح فيتضمن النظر إلى الوثيقة المقصودة بالدراسة والنظر إلى نسخها ، هل وجدت نسخة بخط المؤلف ، فتكون هى الأصل وتقوم الدراسة عليها ؟ أم أنها مكتوبة بخط شخص آخر غير المؤلف وليس هناك إلا نسخة واحدة يمكن أن يكون بها أخطاء لجهل الناسخ فينبغى أن يصحح الباحث

(١) مناهج البحث فى التربية وعلم النفس ، تأليف أ.د. جابر عبد الحميد جابر ، و أ.د. أحمد خيرى كاظم ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) مناهج البحث فى التربية وعلم النفس ١٢٠ .

(٤) مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية والتربوية ٨١ .

هذه الأخطاء بالإشارة إليها مستفيداً من خبرته . أم أن هذه الوثيقة لها أكثر من نسخة ، وفى هذه الحالة ينبغي أن يقوم الباحث بدراسة هذه النسخ لكى يتبين ما يرجع منها إلى أصل واحد ، ويمكنه التعرف على ذلك من احتواء هذه المخطوطات على الأخطاء نفسها فى المواضع نفسها فيظهر الأصل أو المخطوطة التى نُقل عنها ، وفى هذه الحالة تعدّ الأخيرة مخطوطة من الدرجة الأولى^(١) بحيث يعتمد عليها .

(ب) نقد المصدر:

ويتضمن مصدر الوثيقة ومؤلفها وزمانها ، فقد تكون هناك وثيقة عظيمة القيمة ولكنها تنسب إلى شخصية أخرى غير واضعها .

وسنحاول فيما يلى تطبيق هذا المنهج سواء ما اتصل بنقد التصحيح أم بنقد المصدر ، حيث استطعنا جمع عشر نسخ كلها بخطوط مختلفة ليس من بينها النسخة الأصلية ، كما أننا حريصون على إيضاح زمن كتابة هذه المنظومة ، حيث يمثل ذلك نقطة مهمة فى توثيق نسبة النص إلى صاحبه وذلك من خلال بعض الإشارات الواردة عن هذه المنظومة .

ثانياً - النقد الداخلى

وله أهمية كبيرة فى دراستنا هذه ، حيث تتضمن هذه المرحلة تقييم المنظومة ومعلوماتها وبيان صدق المادة العلمية الموجودة بالوثيقة، وعلى ذلك فإن الباحث يواجه مشكلات أصعب كثيراً مما يواجهه فى مرحلة النقد الخارجى^(٢) حيث ينبغي دراسة المادة دراسة دقيقة تبين هل تتعارض مع ما ورد عن المؤلف فى مصادر أخرى، ويتطلب هذا من الباحث أن يلمّ جيداً بلغة كاتب الوثيقة ولغة العصر الذى عاش فيه وكتب فيه الوثيقة^(٣)، ويعلى الأستاذ عبد السلام هارون من قدر هذه الاعتبارات التاريخية قائلاً^(٤): «وتعدّ

(١) مناهج البحث فى التربية وعلم النفس ١٢١-١٢٤ .

(٢) مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية والتربوية ٨١ .

(٣) مناهج البحث فى التربية وعلم النفس ١٢٦ .

(٤) تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام هارون، الطبعة الثانية ص ٤٣ .

الاعتبارات التاريخية من أقوى المقاييس فى تصحيح نسبة الكتاب أو تزييفها» ولهذا كنّا حريصين على هذا المقياس فتوقفنا كثيراً أمام ذكر قطرب الذى توفى بعد الخليل حيث ذكره الخليل فى منظومته ، وقارنا بين لغة الخليل فى المنظومة وما ورد مرويّاً عنه فى غير ذلك من المراجع ، وقارنا بين ما نقل عن شخصيته وما ورد من معان فى أمثله التطبيقية .

وهذا « النقد الداخلى » كما يطلق عليه علماء أصول التربية هو الأكثر أهمية ، وهو ما يطلق عليه أستاذنا عبد السلام هارون : (تحقيق متن الكتاب) الذى يقتضى من الباحث الأداء الصادق ، والأمانة والصبر يقول شيخنا عبد السلام هارون ^(١) : « ليس تحقيق المتن تحسّناً أو تصحيحاً ، وإنما هو أمانة الأداء التى تقتضيها أمانة التاريخ ، فإن متن الكتاب حكم على المؤلف وحكم على عصره وبيئته ، وهى اعتبارات تاريخية لها حرمتها كما أن ذلك الضرب من التصرف عدوان على حق المؤلف الذى له وحده حق التبديل والتغيير » ومن هنا سنحاول قدر الإمكان مقارنة المعانى والنصوص والمصطلحات بما ورد على لسان الخليل دون تدخل إلا بتفسير أو تحليل ، وستترك بعض العناوين التى جاءت فى غير مكانها أو اندرج تحتها ما ليس لها ، مع الإشارة إلى ذلك ، والقارئ الكريم يستطيع متابعة ذلك وتكوين رأى فيما يقرؤه ، ولو صحح خطأ من الأخطاء فسيتم الإشارة إليه .

من المؤكد أن هذه المنظومة النحوية لم تأخذ حقها فى الظهور ولم تشتهر على الساحة النحوية شهرة غيرها من المنظومات النحوية الأخرى التى جاءت بعدها فى عصور تالية ، ولعل ذلك يشير بعض التساؤلات عن أسباب خفاء هذه المنظومة حتى هذا الوقت المتأخر فى حقل الدراسات النحوية واللغوية . هل تخوّف الدارسون من فكرة نسبتها للخليل ؟ وهو من هو فى حقل الدراسات النحوية واللغوية ؟ هل ظلّت طوال كل هذا الزمن مغمورة لا يُعرف من أمرها شئ ؟ ولم تصل إليها أيدي الدارسين فظلت فى خدرها لم يقترب منها أحد . هل عزف عنها الدارسون لأسباب فنية أخرى ؟

(١) تحقيق النصوص ونشرها ٤٤ .

لا شك أن التنقيب داخل المخطوطات المحفوظة فى المكتبات الخاصة أو العامة ، وعدم تمكّن عناوين هذه المخطوطات من خداع القارئ المثابر الذى يتوقع أن يجد عنواناً مخالفاً للمضمون أو مضموناً مخالفاً للعنوان ، أو يجد مجموعاً به عدة مخطوطات وُضِعَ له عنوان لمخطوطة واحدة من هذا المجموع ، أقول لا شك أن كل هذا يمكن أن يكشف النقاب عن الكثير من المفاجئات سلباً أو إيجاباً لو كانت محاولات الكشف جادة تتسم بالصبر والدأب .

ولعل تلك المثابرة هى التى كشفت النقاب عن هذه المنظومة المنسوبة إلى الخليل . فقد وُجِدَتْ عشر نسخ مخطوطة لها . كل هذه النسخ ضمن مجاميع مخطوطة ، سواء بالمكتبات الخاصة أو العامة ، وربما كان هذا مدخلاً مهماً للإجابة عن السؤال : لماذا لم تكتشف منظومة الخليل النحوية من قبل ؟ .

فلقد كانت نسخ هذه المنظومة مطمورة ضمن مجاميع مخطوطة . هذه المجاميع احتوت فى معظمها على نصوص مهمة ، بعضها أشعار للإمام على ابن أبى طالب والشافعى والبوصيرى ، وبعضها نحوى لقدامى النحاة وبعضها منظومات نحوية أو نصوص لغوية كمثلثات قطرب أو اللخمى . . . إلخ . ومن الواضح الاهتمام بأمر هذه المجاميع من قبل أصحابها ، والعناية بنسخها عن طريق نسخ متخصصين ، بل ومراجعتها أحياناً على نسخ أصلية أقدم للوصول إلى نص صحيح . والملاحظ أننى لم أجد نسخة واحدة فى مخطوطة مستقلة من نص المنظومة ، على الرغم من الاهتمام بأمر الخليل بن أحمد وأعماله بشكل لافت للنظر ، ويبدو أن ذلك كان سبباً قوياً فى عدم الكشف عنها أو الاهتمام بأمرها حتى الآن وربما كان السبب استصغاراً لحجمها بالقياس للمنظومات النحوية الأخرى التى تصل إلى ألف بيت أو يزيد ، وربما كان السبب الشك فى صحة نسبتها إلى الخليل بن أحمد ، إذ كيف تكون هذه المنظومة كتبت فى القرن الثانى الهجرى ، ولم تظهر للنور حتى الآن ؟

كل هذا دار فى خلدى وأنا بين الإقبال مرةً والإحجام مرّات على تحقيقها إلى أن عثرت على نصٍّ لخلف الأحمر ^(١) الذى كان معاصراً للخليل ، وكانت

(١) خلف الأحمر هو أبو محرز مولى بلال بن أبى بردة، راوية علامة بالأدب، شاعر من أهل =

وفاته بعد وفاة الخليل بعشر سنوات تقريباً . هذا النص يشير إلى تلك المنظومة النحوية للخليل ، بل وينقل بيتين من تلك المنظومة مستشهداً بهما على قضية نحوية نراها فى نص خلف الأحمر الذى يقول فيه تحت عنوان « باب حروف النسق » يقول خلف الأحمر عن هذه الحروف فى كتابه « مقدمة فى النحو »^(١) « فنسق بها ، فإذا أتيت برفع ثم نسقت بشئ من حروف التنسيق رددت على الأول لم أى عطف على الأول لم وكذلك إذا نصبت وخفضت ثم أتيت بحروف النسق رددت على الأول . وحروف النسق خمسة . وتسمى حروف العطف . وقد ذكرها الخليل بن أحمد فى قصيدته فى النحو ، وهى قول الشاعر :

فانسق وصل بالواو قولك كَلَّه

وبلا وثم وأو ، فليست تَصْعَبُ

الفاء ناسقةٌ كذلك عندنا

وسيلُّها رحبُ المذاهب مُشْعَبُ

وهذان البيتان يحملان رقمى ١٥٧ ، ١٥٨ من منظومة الخليل النحوية ، وإن كانت كلمة القافية فى البيت الأول جاءت على أشكال متنوعة ، فمرة « تعقب » ويكون القصد منها أن (أو) ليست للتعقيب مثل ثم الواقعة قبلها مباشرة ، ومرة جاءت « تعصَّب » وجاء التركيب « ولست تعصَّب » ؛ أى لست متشدداً عند استخدام حروف العطف هذه ، ومرة جاءت « ولست تغصَّب » من الغضب .. إلخ .

وهذه كلها أشكال متغايرة جاءت باختلاف النسخ ، وكلها جاءت فى شكل اختلافات يسيرة لا تمثل خللاً فى صلب القضية موطن الحديث ، وفى نهاية الأمر قد تأكد وجود البيتين فى منظومة الخليل التى أشار إليها خلف

= البصرة، كان أبواه موليين من فرغانة . اعتقهما بلال بن أبى موسى الأشعرى . حمل عنه ديوانه أبو نواس وتوفى فى حدود الثمانين ومائة (١٨٠هـ - ٧٩٦م) . عالم بالأدب يسلك الأصمعى طريقه ويحذو حذوه . له ديوان شعر وكتاب جبال العرب ومقدمة فى النحو (طبع) . انظر فى ترجمته الأعلام للزركلى ج٢ ص ٣١٠ ، وكتاب الوافى بالوفيات ٣/٣٥٣-٣٥٥ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م دار النشر فرانز شتاير بفيسبادن .

(١) كتاب مقدمة فى النحو لخلف الأحمر (١٨٠هـ) تحقيق : عز الدين التنوخى دمشق ١٣٨١هـ - ١٩٦١م ص ٨٥ ، ٨٦ .

الأحمر ، بل وجاءت تحت عنوان « باب النسق » فى قصيدة الخليل الذى قال
تحت هذا الباب مباشرة :

وإذا نسقت اسماً على اسم قبله
أعطيته إعراب ما هو مُعَرَّب
وانسق وقل بالواو
والفاء ناسقة
فتقول حدثنا هشام وغيره
ما قال عوف أو حسين الكاتب
واستمر الخليل فى التمثيل لحروف العطف رفعاً ونصباً وجرّاً حتى البيت
رقم ١٦٢ من المنظومة .

لعل تساؤلاً ملحاً يطرح نفسه بقوة أمامنا الآن ، هذا التساؤل مفاده هو :
كيف نعلم على أقوال وأخبار خلف الأحمر وقد كثر اتهام المؤرخين له
بالانتحال والوضع ونقل الأخبار غير الموثوق بصحتها ؟ ألا يمكن أن يكون ذكر
خلف الأحمر لهذه المنظومة النحوية ونسبتها للخليل على لسانه مثاراً للشك فى
تلك النسبة ؟ حيث يتهم فى أخباره وأشعاره ونسبتها إلى أصحابها .

وللإجابة عن هذا أنه يمكن أن يكون لهذا السؤال وجاهته ومجاله لو أن
الأمر كان متعلقاً بأبيات أو بقصيدة لها غرض آخر ، مثل المدح أو الذم أو ذكر
يوم من أيام العرب أو ذكر مثالب قبيلة ما أو إثبات صفات لبعض الأشخاص
أو غير ذلك من الأشياء التى يمكن أن تكون مثاراً للوضع والانتحال ، إن ثبت
ذلك عن خلف الأحمر ، أما وأن الأمر متعلق بقصيدة نحوية ليس الغرض
منها اجتماعياً أو سياسياً أو مدحاً أو ذماً ، فإن أمر الشك لا مجال له هنا
والسؤال المقابل الذى يطرح نفسه فى وجه هذا الشك هو : لماذا يتخيل أحد
أسباباً غير حقيقية لخلف الأحمر كانت عاملاً على نسبة هذه القصيدة للخليل
ابن أحمد ؟ وأى أسباب هذه ، تلك التى تجعل خلف الأحمر حريصاً على
نسبة هذه القصيدة للخليل ؟ غير الحقيقة فى وجود هذه النسبة .

وإذا كان هناك من يشك في رواية خلف الأحمر للأشعار فإن هناك أيضاً من يثبت له الثقة والنزاهة . يقول صلاح الدين الصفدى عن خلف ^(١) « كان راوية ثقة علامة يسلك الأصمعي طريقه ويحذو حذوه حتى قيل : هو معلم الأصمعي ، وهو والأصمعي فتقا المعاني وأوضحا المذاهب وبيننا المعالم » بل إن الزركلي ينقل قول معمر بن المثنى أن خلف الأحمر معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة ^(٢) ، ولا شك أن كل هذه شهادات علمية جيدة في حق خلف . وإذا كان خلف قد انتحل الشعر على بعض العرب فربما كان ذلك في بداية حياته وكان يقلد القدماء ليحاكى ألفاظهم ، يقول الصفدى ^(٣) « ولم يكن فيه ما يعاب به إلا أنه كان يعمل القصيدة يسلك فيها ألفاظ العرب القدماء وينحلها أعيان الشعراء » والخليل بن أحمد كان معاصراً له فقد توفي خلف عام ١٨٠هـ - ٩٧٦م تقريباً - على حد تعبير الزركلي في الأعلام ^(٤) . بالإضافة إلى أن ألفاظ القصيدة لا تشابه ألفاظ القدماء فقد عبرت عن الخليل خير تعبير وتساوقت مع أشعاره الأخرى في ألفاظها ومعانيها .

أما انتحال خلف للشعر الذي أشار إليه المؤرخون ، فربما قد تم لفترة محدودة في مقتبل حياته . أقلع عن ذلك وتنسك وأعلن عن كل شيء انتحله ولنقرأ هذا النص المنقول عن أبي الطيب اللغوى حيث يقول ^(٥) : « كان خلف الأحمر يصنع الشعر وينسبه إلى العرب فلا يعرف ثم نسك وكان يختم القرآن كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك العظماء مالا عظيماً على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه فأبى ذلك وقال : قد مضى لى فيه ما لا أحتاج أن أزيد عليه . وكان قد قرأ أهل الكوفة عليه أشعارهم فكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية ، فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة يعرفهم الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس » .

(١) الوافى بالوفيات ٣٥٤/١٣ .

(٢) الأعلام ٣١٠/٢ .

(٣) الوافى بالوفيات ٣٥٤/١٣ .

(٤) الأعلام ٣١٠/٢ ، وانظر الوافى بالوفيات ٣٥٣/١٣ .

(٥) الوافى بالوفيات ٣٥٥/١٣ .

إن تنسكه وختمه القرآن كل يوم وليلة ورفضه لعرض بغض الملوك وإصراره على إخبار الناس بما انتحله لتوبة صادقة ، وصارت بعد ذلك حياته أقرب إلى الثقة منه إلى الانتحال ، ولهذا يبقى ما ورد في كتابه « مقدمة في النحو » عن نسبة المنظومة النحوية إلى الخليل بن أحمد يقيناً حسبما ورد في الكتاب ، إذ لو كانت القصيدة ليست للخليل لكان أعلن ذلك للناس أو حذفها من كتابه ، لأنه كان يشير إلى المنحول المسموع فما بالناس بالمكتوب لديه ، ولا أظن أن كتابه قد اشتهر وخرج إلى الناس في حياته ، ولو كان ذلك قد تم لكان قد أعلن انتحال هذه المنظومة على الخليل ، إن الانتحال في رأى لا يكون في نسبة قصيدة نحوية لصاحبها ولا أظن أن في الأمر شيئاً آخر غير الحقيقة في هذه النسبة .

ولعل فيما يلي - إضافة إلى قول خلف الأحمر - لدليلاً على صحة نسبة المنظومة للخليل .

أولاً - وجود عشر نسخ من نص المنظومة المنسوبة للخليل ، بخطوط لنسّاح مختلفين بعضها في دائرة المخطوطات والوثائق التابعة لوزارة الثقافة والتراث القومي بسلطنة عمان وبعضها في مكتبات خاصة مثل نسخة مكتبة معالي السيد محمد أحمد البوسعيدى ونسخة مكتبة الفاضل سالم ابن حمد بن سليمان بن حميد الحارثي بالمضيرب ^(١) .

ثانياً - نسبت القصيدة في النسخ السابقة إلى الخليل بن أحمد ، باستثناء النسخة ب التي لم يذكر ناسخها نسبتها إلى أحد ، والملاحظ أيضاً أن قصيدة الخليل في النسخة ب لم تنسب لغير الخليل فرمما سقط من الناسخ ذكر مؤلفها نسياً ، وعلى هذا يلاحظ أن أحداً من النسّاح لم ينسبها لغير الخليل بن أحمد ولم يشك أحد من النسّاح في تلك النسبة . وما ورد في نهاية النسخة (أ) من نص منظومة الخليل لا يعدّ من هذا القبيل . يقول الناسخ في نهاية منظومة الخليل : « تمّت قصيدة الخليل بن أحمد العروضى رحمة الله عليه وعلى جميع المسلمين والمسلمات . آمين .

(١) ولاية من ولايات سلطنة عمان .

وصلى الله على محمد النبي الأُمّى وآله وسلّم تسليماً . تمّ معروضاً على حسب الطاقة والإمكان والله أعلم بصحته . فقد كان الناسخ أميناً مع نفسه وكان حريصاً في مجموعه الذى ضمّ منظومة الخليل أن يقول تلك العبارة أو قريباً منها فى كل مخطوطة يكتبها حتى تبرأ ذمته ، بل ذكر صراحة فى مرة من المرات أن مخطوطه الذى نسخه « عرض على نسخة من بعض النسخ » وهذا يظهر أمانته التى اقتضت منه تلك العبارة « والله أعلم بصحته » إذ لو كان يشك فى تلك النسبة ما كان قد نسب المنظومة إلى الخليل بن أحمد صراحة فى أولها ، والقصد أن الله أعلم بصحة النص المقدّم الذى نقل منه .

ثالثاً - لم أجد أحداً من النساخ أو من غير النساخ يشكك فى صحة نسبة هذه المنظومة إلى الخليل بن أحمد إلا ما ورد على لسان الدكتور إبراهيم السامرائى عندما كان يتكلم عن المصطلحات النحوية فى كتابه « المدارس النحوية » ، وتوقف أمام مصطلح النسق . نجده يقول ^(١) : « النسق من مصطلحات الخليل ، فقد جاء فى « مقدمة فى النحو » ^(٢) أن للخليل قصيدة فى النحو ، جاء فيها بيتان يتحدث فيهما عن النسق وحروفه ، مستعملاً كلمة النسق ، وهما :

فانسق وصل بالواو قولك كلّهُ .: وبلا وثمّ وأو فليست تقعب ^(٣)
الفاء ناسقة كذلك عندنا .: وسبلها رجب المذاهب مشعب ^(٤)

(١) فى كتابه « المدارس النحوية » أسطورة وواقع ، عمّان الطبعة الأولى ١٩٨٧م ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) يقصد كتاب خلف الأحمر .

(٣) تلاحظ كلمة القافية « تقعب » التى جاءت مخالفة لما جاء فى كتاب خلف الأحمر وكل نسخ المخطوط .

(٤) وردت كلمة « وسبلها » بدلاً من « وسيلها » والأولى خطأ لأنها تؤدى إلى الإخلال بموسيقى البيت ، وهى أيضاً مخالفة لما ورد فى كتاب خلف وجميع نسخ المنظومة .

وإذا صحت هذه الأبيات ولا أراها تصح ، فالذى يعنيننا أن النسق قديم ، وقد التزم به الكوفيون كما استعمله البصريون ليفرقوا فى باب العطف بين عطف البيان وعطف النسق » . ولست أدرى ما المقصود بصحة هذه الأبيات عند الدكتور السامرائى ؟ هل يكون المقصود صحة الأبيات صحة دلالتها على القضية المستشهد لها ؟ أم يكون المقصود صحة نسبة هذه الأبيات على سبيل حذف المضاف من كلام الدكتور السامرائى ، مع ملاحظة أنه كان من الأفضل ألا يترك هذا الأمر غامضاً بحذف المضاف لما يترتب عليه من أحكام .

وبتأمل كلام الدكتور السامرائى نقول : لو كان المقصد بالكلام دلالة وصحته لكان هو المسئول عن ذلك لأنه نقل الكلام خطأ من كتاب خلف الأحمر فأدى ذلك إلى الإخلال بموسيقى البيت الثانى ، وعدم انسجام المعنى فى البيت الأول (تعقب) . ولو كان القصد عدم صحة نسبة الأبيات إلى الخليل فلم يقدم لنا دليلاً على شكّه فما أسهل أن ينفى الإنسان شيئاً دون تعليل ، علاوة على أنه استشهد بالأبيات على قضية استخدام البصريين - ومنهم الخليل - لكلمة النسق قائلاً : « استعمله البصريون ليفرقوا فى باب العطف بين عطف البيان وعطف النسق » وفى هذا اعتراف له بأنها قصيدة الخليل ، وكأنّ كل همّة كان فى إثبات وجود مصطلح النسق عند البصريين . ويبدو أن الدكتور السامرائى لم يشأ أن يتعب نفسه فى التأكد من استخدام الخليل لهذا المصطلح . ولو توجه إلى كتاب الجمل الذى حققه الدكتور فخر الدين قباوة ، والذى نسب إلى الخليل لكان قد وجد هذا المصطلح يتردد كثيراً على لسان الخليل ، وسوف نفرد لذلك حديثاً خاصاً بعد قليل عند كلامنا عن مصطلحات المنظومة .

رابعاً - لعل تعليق الأستاذ « عز الدين التنوخى » الذى حقق كتاب خلف الأحمر « مقدمة فى النحو » يحمل دلالة خاصة على ما نحن فيه .

فعندما أشار خلف الأحمر إلى حروف العطف قال : « وقد ذكرها الخليل ابن أحمد فى قصيدته فى النحو ، وهى قول الشاعر . . . إلخ » حينئذ يعلق عز الدين التنوخى على « قول الشاعر » قائلاً^(١) : « وصواب التعبير أن يقال (وهى قوله) لعودة التعبير على متقدم ، ولعله أراد أن يشير إلى أن الخليل كان شاعراً ، وقد كان بالفعل شاعراً ، والنحاة لا يذكرون أن له قصيدة فى النحو ، وإن كانت كتب المصنفين لا تذكر بأجمعها فى إثبات مصنفاتهم ، فعلى هذا تكون هذه القصيدة - إن صحت نسبتها - هى من جملة ما ضاع من كتب الخليل . »

هذا النص - على قصره - يكشف عما يلى :

(أ) أن كتب المصنفين لا تُذكرُ بأجمعها فى إثبات مصنفاتهم وعلى هذا فلا غرابة أن يكون لل خليل تلك القصيدة النحوية دون أن تنسب إليه .

(ب) ضياع جزء كبير من مؤلفات الخليل ، وهذا واضح أيضاً من خلال كتب التراجم والسير ومعاجم المؤلفين ، وبهذا يمكن أن تكون تلك القصيدة النحوية قد طمرت حبيسة المجاميع اللغوية وغير اللغوية حتى كشف عنها الستار .

(ج) تكشف هذه القصيدة عن شاعرية الخليل بن أحمد العميقة بأمثلتها الغزلية ومعانيها الرقيقة وابتعادها عن الأسلوب الجاف الذى يحكم المنظومات النحوية غالباً مما يجعلنا نكاد نسميها « قصيدة » لا « منظومة » ولعل هذا ما جعلها مطمورة ضمن أعمال الخليل الشعرية دون اهتمام من النحاة بها حيث إنها دالة على شاعريته لا على كونه ناظماً أو قائلاً منظومة نحوية .

خامساً - من الأدلة الواردة التى تثبت صحة نسبة هذه القصيدة إلى الخليل بن

(١) هامش ص ٨٦ من كتاب مقدمة فى النحو .

أحمد الفراهيدى، ما قاله صاحب كتاب « إتحاف الأعيان »^(١) من أن للخليل عدة أشعار، منها البيتان والثلاثة، ومنها أكثر من ذلك، ثم قال : « ومن نظمه قصيدة فى النحو أولها :

الحمد لله الحميد بمئه .: أولى وأفضل ما ابتدأت وأوجب حمداً يكون مبلغى رضوانه .: وبه أصير إلى النجاة وأقرب واستمر المؤلف فى ذكر قصيدة الخليل حتى البيت رقم ٢٦ الذى يقول فيه الخليل :

فإذا نطقت فلا تكن لحانة .: فيظل يسخر من كلامك معرب ثم قال بعد هذا البيت مباشرة^(٢) عن قصيدة الخليل النحوية : « وهى أطول من هذا ، يقول فى آخرها :

النحو بحر ليس يدرك قعره .: وعر السبيل عيونه لا تنضب فاستغن أنت ببعضه عن بعضه .: وصن الذى علمت لا يتشعب » واستمر فى ذكر ما جاء عن الخليل من أشعار أخرى مثل قوله :

يا ويح قلبى من داعى الهوى .: إذ رحل الجيران عند الغروب اتبعتهم طرفى وقد أزمعوا .: ودمع عينى كفيض الغروب بانوا وفيهم طفلة حرّة .: تفتّر مثل أقاحى الغروب

ولعل ذكر منظومة الخليل النحوية ضمن أشعاره فى المؤلفات المختلفة لدليل على ما سبق وقلناه من أن ذلك كان سبباً فى عدم ظهور وكشف هذه المنظومة الشعرية للخليل ، وأيضاً فإن النص الوارد فى كتاب إتحاف الأعيان لدليل على صحة نسبة هذه القصيدة للخليل بن أحمد .

(١) إتحاف الأعيان فى تاريخ بعض علماء عمان تأليف الشيخ سيف بن حمود بن حامد البطاشى ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م ، الجزء الأول ، ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) إتحاف الأعيان ١/ ٦٤ ، ٦٥ .

٣ - منهج الخليل فى المنظومة

لم يكن التأليف النحوى فى عصر الخليل وقبله قد استقر أو أصبح له أصول وقواعد ، فالأمر كان فى حيز البدايات التأليفية ، والبداية عادة تجربة خاضعة للفشل أو النجاح ، والخليل فى منظومته كان حريصاً كل الحرص على الجانب التعليمى للمتلقى ، فجاء ذلك على حساب القواعد النحوية غير المفصلة ، وحرّم النحو العربى من تفصيلات كان فى حاجة إليها ، ربما كان صنيع الخليل موافقاً للشادين فى النحو ، الحريصين على سلامة الجملة بمعرفة أقل القواعد وأيسرها دون التعمق فى تفصيلات أو فلسفات نحوية أو ذكر تقسيمات نحوية للظواهر المختلفة ، أما الدارسون الذين يطلبون النحو مفصلاً ومعللاً فلا نجد ذلك عند الخليل فى منظومته ، ويبدو أن الخليل كان حريصاً على أن يفرق بين مستويين :

(١) المستوى الأول : مستوى عوام الناس الذين يريدون تعلّم النحو ، ولا حاجة لهم إلى تفصيلات ، أو الولوج فى أعماق هذا البحر الخضم المتلاطم الأمواج ، وعلى هؤلاء الحذر والاقتصاد فى تناول المادة النحوية ، وقد أظهر ذلك فى الأبيات الثلاثة الأخيرة فى المنظومة .

(٢) المستوى الثانى : مستوى الدارس المتخصص ، وفى هذه الحالة لابد من التعمق والبحث فى المسائل الخلافية والعلل النحوية ، وعلى هؤلاء أن يلجوا الأعماق .

ويبدو واضحاً أن المنظومة جاءت لخطاب المستوى الأول لهذا كانت سماتها تتفق وهؤلاء . وفيما يلى نعرض لسمات التأليف النحوى عند الخليل فى منظومته .

(١) جاءت المنظومة بعيدة عن المسائل الخلافية التى كانت مثار حوار وجدل كبير بين النحويين ، ولم تعرض المنظومة رأياً مخالفاً لرأى الخليل ، أو

رأياً لغيره حتى ولو كان موافقاً لرأيه إلا فى حالة واحدة فقط عندما ذكر (قطرباً) وهذه الحالة موطن لحديث مستقل ، كذلك لم يعلل الخليل للقواعد الواردة ، مع أننا نعلم أنه كان مولعاً بالعلل وذكرها والحديث عنها ، ويبدو أنه كان يدرك أن المنظومة التعليمية يجب أن تتخلى عن كل ذلك .

وما فعله أصحاب المنظومات النحوية فيما بعد جاء مخالفاً لصنيع الخليل ، فقد كان مؤلفوها يذكرون الآراء الراجحة والمرجوحة ويعلمون ويفسرون ، ويرجحون رأياً على رأى آخر مع تقديم الأسباب والمبررات .

(٢) اهتم الخليل بالقاعدة النحوية والتمثيل لها ، لكنه لم يهتم بالشاذ الخارج عن القاعدة ، فلم يذكر شاذاً أو يمثل لشيء منه إطلاقاً ، وهذا النهج الذى اتبعه الخليل راعى فيه أن طالب النحو فى بداية أمره ليس فى حاجة إلى الشاذ الخارج عن القاعدة ، فالأفضل أن يقتصر الأمر على أصل القاعدة دون خروج عنها .

(٣) لم يهتم الخليل بالجزئيات النحوية أو التفرعات والتقسيمات ، كذلك لم يهتم بتفصيل القاعدة نظرياً ، وانصبّ اهتمامه على ذكر القاعدة العامة دون ذكر تفصيلاتها ، ثم التركيز بعد ذلك على التمثيل المفصل ، وهذا النهج به بعض الصعوبة لطالب علم النحو إلا إذا استعان بمعلم يفسر ويوضح ما جاء من أمثلة يغطى كثيراً من تفرعات القاعدة ، لهذا لا بد من الاعتماد على معلم ليضئ الملامح الخبيثة لجزئيات القاعدة النحوية . وربما كان ذلك به بعض الصعوبة لمن ليست لديه أية معرفة بعلم النحو وقواعده .

(٤) ترك الخليل أبواباً نحوية هى من صلب النحو العربى مثل باب الحال أنواع المعارف الاشتغال ، التنازع ، العدد وكنائاته ، أسماء الأفعال ، التمييز ،

الإضافة مع أنه قد أشار إلى بعضها عرضاً في بعض الأحيان مثل التعريف والتذكير ، أو مثل لبعضها في سياقات أخرى مثل الحال ، لكنه لم يذكر قواعد تدل على تلك الأبواب ، وهناك بعض الأبواب ذكرت ضمناً متداخلة مع أبواب نحوية أخرى مثل : الإعراب والبناء ، الإعراب الأصلي والإعراب الفرعي بأشكاله المختلفة ، فهذه القواعد النحوية لم تذكر منفصلة ، ربما لأنها داخلية في كل الأبواب النحوية تقريباً ، وتكررت نماذجها في معظم الأبواب النحوية عند التمثيل لها .

(٥) جاء أسلوب الخليل سهلاً ميسراً بعيداً عن الالتواء والتعقيد ، كما جاء واضحاً فيما هدف إليه من القواعد العامة ، كما جاءت أمثلته معبرة عن معان ودلالات مقصودة .

(٦) كان الخليل بارعاً عندما صنع مقدمة لمنظومته ، استطاع من خلالها أن يمهّد نفسية المتلقى لقبول هذا العلم الذي يتسم - عند البعض - بالصعوبة ، ظهر في المقدمة ثقة الخليل بنفسه عندما قال :

إنى نظمت قصيدة حَبَّرتها .: فيها كلام مونق وتأدب
لذوى المروءة والعقول ولم أكن .: إلا إلى أمثالهم أتقرب
عربية لا عيب في أبياتها .: مثل القناة أقيم فيها الأكعب

وقد ظهر في المقدمة أيضاً ظُرف الخليل وفكاهته ، كما ظهرت قدرته البارة على الانتقال الهادئ السلس من المقدمة إلى الموضوع الأول عندما قال :

فإذا نطقت فلا تكن لحانة .: فيظل يسخر من كلامك معرب
النحو رفع في الكلام وبعضه .: خفض وبعض في التكلم ينصب

فقبل أن يذكر أولى قواعده طلب من المتلقى أن يكون حذراً عند النطق حتى لا يلحن فيثير سخرية الآخرين ، ثم انتقل بعد ذلك انتقالاتاً مباشرة إلى الحديث عن القواعد النحوية ، وبدأها بداية طبيعية بمعرفة أحوال أواخر الكلم .

كذلك كان الخليل بارعاً في ختام قصيدته عندما قال في نهاية الحديث عن القواعد النحوية :

النحو بحر ليس يدرك قعره .: وعر السبيل عيونه لا تنضب
فاقصد إذا ما عمت في آذيه .: فالقصد أبلغ في الأمور وأدرب
واستغن أنت ببعضه عن بعضه .: وصن الذي علمت لا يتشذب

فالخليل يشير إلى أن النحو بحر عميق وطريقه وعرو عيونه فياضة فعلى من يقترب منه أن يكون حذراً ، وعلى متعلم النحو أن يقتصد في بداية أمره حتى لا تطيح به الأمواج العاتية ، ويجب أن يأخذ منه المتلقى بالقدر المناسب تدريجياً ، وهذه سمة المعلم الحقيقي أن يكون مرشداً لطلابه في كيفية تناول القواعد لا أن يقدمها له فقط .

ثالثاً: مصطلحات الخليل

لم يكن الخليل بن أحمد أول من تكلم فى النحو وبسط آراءه فى قضاياها واستخدم مصطلحاته الكثيرة ، فقد سبقه من تحدث فى النحو وتكلم فى مسائله ، وربما مَنْ وضع مؤلفاً ضاع مع ما ضاع من التراث العربى ، بدءاً من الإمام على بن أبى طالب الذى أشيع عنه أنه وضع مقدمة فى النحو أخذها عنه أبو الأسود الدؤلى ^(١) - كما قيل - ثم بدأ فى تأصيل النحو العربى ، وربما اشترك معه عبد الرحمن بن هرمز ونصر بن عاصم ^(٢) وهم من تلاميذه ، ومروراً ببقية تلاميذ أبى الأسود مثل : ابنه عطاء وميمون الأقرن وعنبسة الفيل ويحيى بن يعمر ، ثم جاء عبد الله بن اسحق وطبقته من أمثال عيسى بن عمر الثقفى وأبى عمرو بن العلاء ، ثم جاء الخليل بن أحمد بعد كل هؤلاء فاهماً واعياً كل ما قيل من قبله وكل ما طرح من قضايا النحو العربى ، جاء الخليل مع طبقته وتلاميذه من أمثال يونس بن حبيب والأصمعى وسيبويه والنضر بن شميل وأبى مفيد مؤرج بن عمرو السدوسى ، وعلى بن نصر على الجهمضى ليخطو بالنحو خطوات واسعة متنامية إلى التطور وتأصيل مصطلحاته وتأسيس قضاياها والوصول به إلى مرحلة النضج والاكتمال ، وكان الخليل على رأس من قدّم لنحو العربية هذه الدفعة القوية بتعليقاته وآرائه ، وأيضاً مَنْ جعل للنحو البصرى ملامح خاصة ومنهجاً محدداً متضح المعالم ، وبالتالي شيوع المصطلحات النحوية الدقيقة التى مازالت تستخدم حتى الآن على ألسنة المعلمين

(١) إنباه الرواة للقفطى ٥/١ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٢ .

والدارسين ، ولعل استخدامه لهذه المصطلحات من خلال المنظومة ومقولاته وشروحاته الشفوية لتلاميذه وأيضاً من خلال كتابه الجمل ، أقول لعل استخدامه لتلك المصطلحات هو الذى لفت نظر تلميذه سيبويه إليها لتشيع فى حقل النحو العربى من خلال « الكتاب » الذى كان للخليل دور كبير فيه .

وإذا كانت هذه المنظومة النحوية للخليل هى أول منظومة فى النحو العربى ، بل هى أول عمل يأتى مخطوطاً محفوظاً دون تشويه فإن المصطلحات والقضايا الواردة به سيكون لها دور كبير فى تأصيل النحو البصرى وتجسيد المصطلح النحوى لدى البصريين ، وخاصة أن ما وصلنا من مخطوطات نحوية كتبت فى القرن الثانى الهجرى قليل يعدّ على أصابع اليد الواحدة ، منه تلك المنظومة النحوية وكتاب الجمل فى النحو العربى ، وكتاب سيبويه مما يجعلنا نقول : إنه من خلال هذه الأعمال النحوية أولاً ومما ورد مع بداية القرن الثالث الهجرى من أعمال نحوية مثل مقدمة فى النحو لخلف الأحمر وغير ذلك فإننا نستطيع التأريخ للمصطلح النحوى بشكل يمكن أن يكون دقيقاً .

ولا أبالغ إذا قلت بعدم وجود تعارض فى استخدام المصطلحات النحوية بين المنظومة النحوية وما ورد على لسان الخليل فى كتابه الجمل وما ورد عند سيبويه فى (الكتاب) على لسان الخليل ، ولعل هذا ما يجعلنا مطمئنين إلى نسبة هذه المنظومة إلى الخليل أيضاً .

انطلاقاً مما مضى نؤكد أن الباحث لا يستطيع رصدًا دقيقًا وتحديدًا جاداً لتاريخ المصطلحات النحوية نظراً لعدم تدوين النتائج النحوى كاملاً ، وخاصة لدى طبقات النحويين الأوائل الذين تكلموا فى قضايا النحو العربى ، وأيضاً لعدم وضوح الرؤية من خلال الغموض والابهام أو الأقوال المتضاربة لدى بعض النحويين حول جزء من المصطلحات الواردة فى ثانيا علم النحو . ولهذا سنحاول التعليق على المصطلحات الواردة فى المنظومة مع المقارنة بتلك

المصطلحات الواردة على لسان الخليل فى بعض أعماله الأخرى مثل « الجمل فى النحو العربى » ومعجم « العين » وما ورد عند سيويه منقولاً عن الخليل .
النسق :

اعتبر النحاة مصطلح « النسق » من مصطلحات الكوفيين ونسب إلى الكوفة ، مع أن المصطلح ولد على يد الخليل واستخدمه فى ثلاثة مصادر :
أولاً : فى المنظومة النحوية عندما قال ^(١) :

١٥٦ وإذا نسقت اسماً على اسم قبله .: أعطيته إعراب ما هو معرب
١٥٧ فانسق وقل بالواو قولك كله .: وبلا وثم وأو فليست تعقب
١٥٨ والفاء ناسقة كذلك عندنا .: وسبيلها رجب المذاهب مشعب
فقد استخدم الخليل ثلاثة أشكال للكلمة وهى : نسقت - انسق - ناسقة ، بل إن العنوان الذى ورد بالمخطوطات قبل هذه الأبيات مباشرة هو : « باب النسق » وهو تعبير مباشر بالاصطلاح المصدري الذى شاع لدى الكوفيين فيما بعد ونسب إليهم ، بالإضافة إلى استخدام الخليل للفعلين الماضى والأمر (نسقت - انسق) ولاسم الفاعل (ناسق) .

ثانياً : فى معجم العين :

استخدم الخليل كلمة (النسق) فى معجم العين ^(٢) حينما قال : « النسق من كل شيء : ما كان على نظام واحد عام فى الأشياء ، ونسقته نسقاً ونسقته تنسيقاً ، ونقول : انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض ، أى تنسَّقت » وهو بهذه الدلالة له علاقة قوية بمعنى النسق باعتباره مصطلحاً نحوياً .

(١) الأبيات من ١٥٦-١٥٨ .

(٢) معجم العين للخليل بن أحمد ٨١/٥ مادة (نسق) .

ثالثاً: فى كتاب الخليل الموسوم بـ « الجمل فى النحو العربى » :

استخدم الخليل هذا المصطلح كثيراً فى كتابه الجمل^(١) وسأكتفى ببعض النماذج الواردة بين ثناياه تدليلاً على وجوده . يقول الخليل^(٢) : « وتقول : إن زيداً خارجٌ ومحمدٌ . نصبت زيداً بيان ، ورفعت « خارجاً » لأنه خبره ، ورفعت محمداً لأنه اسم جاء بعد خبر مرفوع ، وإن شئت نصبت محمداً ؛ لأنك نسقته بالواو على زيد » .

ثم يورد الخليل عنواناً يحمل اسم المصطلح صراحة وهو : لم واو العطف وإن شئت قلت واو النسق^(٣) ثم يقول تحت هذا العنوان : « وكل واو تعطف بها آخر الاسم على الأول أو آخر الفعل على الأول ، أو آخر الظرف على الأول ، فهى واو العطف . مثل قولك : كلمت زيداً ومحمداً ورأيت عمراً وبكرًا . نصبت « زيداً » بإيقاع الفعل عليه ، ونصبت « محمداً » لأنك نسقته بالواو على زيد وهو مفعول به » .

وفى موضع آخر^(٤) عندما يتكلم الخليل عن أنواع (لا) يقول : « ولا للنسق : قولك : رأيت محمداً لا خالدًا ، ومررت بمحمدٍ لا خالدٍ وهذا محمدٌ لا خالد » .

وهناك مواضع أخرى ذكر فيها الخليل كلمة « النسق » وما اشتق منها ، وكلها تثبت استخدام الخليل للمصطلح وتحديد الدلالة له تحديداً دقيقاً ، وكذلك تؤكد وضوح الرؤية لهذا المصطلح لدى الخليل الذى أخذ عنه النحاة البصريون والكوفيون هذه المصطلحات لتشيع فى حقل النحو العربى .

يضاف إلى ما سبق أن خلف الأحمر نقل عن الخليل الأبيات التى تحمل

(١) الجمل ، ص ١٢٨ - ١٣٠ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٣٠٢ ... الخ .

(٢) الجمل ١٢٨ .

(٣) الجمل ٢٨٥ .

(٤) الجمل ٣٠٢ .

كلمة « النسق » ونسبها صراحة إلى الخليل ، بل وأشار خلف الذى كان معاصراً للخليل ، وتوفى بعده بسنوات قليلة إلى المصطلح الوارد عند الخليل صراحة فى قوله ^(١) تحت « باب حروف النسق » « فسق بها ، فإذا أتيت برفع ثم نسقت بشيء من حروف التنسيق رددت على الأول ، وكذلك إذا نصبت وخفضت ثم أتيت بحروف النسق رددت على الأول . وحروف النسق خمسة ، وتسمى حروف العطف ، وقد ذكرها الخليل بن أحمد فى قصيدته فى النحو وهى :

فانسق وصل بالواو قولك كله .: إلخ «

وكلام خلف الأحمر يدل - دلالة واضحة - على شيئين :

الأول : استخدام الخليل للمصطلح .

الثانى : شيوع المصطلح لدى البصريين .

بالإضافة إلى التصريح بأن هذه المنظومة إنما هى للخليل وليست لغيره .

نستطيع - بناء على ما سبق - تأكيد أن مصطلح «النسق» بصرى النشأة ، وربما كان الخليل هو أول من استخدمه ، فلم يثبت لدينا ورود هذا المصطلح قبل الخليل عند نحاة الطبقات التى سبقته ، وأن نحاة الكوفة قد أخذوا هذا المصطلح من البصريين فشاخ على ألسنتهم ، ولعل شيوع هذا المصطلح عند الكوفيين جعل الدكتور مهدى المخزومى يشير إلى أن مصطلح (النسق) من طائفة المصطلحات الكوفية الخالصة التى لم يعرفها البصريون ، فقد وضع هذا المصطلح ضمن الطائفة السابقة حسب تقسيم ثلاثى وضعه ^(٢) لتصنيف المصطلحات النحوية ثم قال تحت مصطلح « النسق » ^(٣) : « وهو عبارة كوفية ،

(١) مقدمة فى النحو لخلف الأحمر ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو ص ٣٠٥ .

(٣) مدرسة الكوفة ص ٣١٥ .

يقابلها عند البصريين : العطف بالحرف ، كالواو والفاء وثم وغيرهن والمصطلح الكوفى (النسق) فيما يبدو لى أدق من المصطلح البصرى لاختصاره وغنائه عن التخصيص والتقييد .

والشئ الصحيح فى كلام الدكتور مهدى المخزومى أن مصطلح « النسق » أدق من مصطلح العطف بالحرف لاختصاره وغنائه عن التخصيص والتقييد ، ولكن من غير الصحيح أن يقال إن المصطلح كوفى ، وذلك لاستخدام البصريين له بدءاً من الخليل الذى كان سابقاً للمدرسة الكوفية زمناً واستخداماً له . وأعتقد أن الدكتور المخزومى لو وقع على ما وقعت عليه مما قدمته قبل قليل لكان له رأى آخر فيما ذهب إليه .

وإذا كان بعض المحدثين قد تشككوا فى نسبة هذه المنظومة النحوية للخليل ابن أحمد إلا أنهم اعترفوا فى نهاية الأمر بأن المصطلح بصرى خليلي يقول (١) الدكتور إبراهيم السامرائى بعد أن قدّم شكوكه - وقد مرّ ذلك من قبل - فى صحة نسبة هذه المنظومة للخليل : « وشاع أيضاً أن « النسق » مصطلح كوفى ، والذى عرفناه أن النسق جاء فى كلام الخليل بـ « العين » وذكره سيبويه فى « الكتاب » ، وأضيف إلى كلامه ورود المصطلح فى منظومة الخليل النحوية وفى كتابه « الجمل » .

ولعل الأدلة السابقة ترد أيضاً على أحد الباحثين المحدثين (٢) عندما أشار إلى أن نحاة الكوفة كانوا أجراً النحاة الذين حاولوا مخالفة المصطلحات البصرية ، كما ورد عند الخليل وسيبويه ، فكأنهم رأوا أن اكتمال مذهبهم النحوى لا يتم إلا بإيجاد مصطلحات مقابلة لما وصلهم من مصطلحات البصريين وعدّ الباحث من ذلك استخدامهم لحروف النسق بدل العطف ثم

(١) المدارس النحوية ص ١٥٤ .

(٢) هو الدكتور جعفر نايف عبابنة فى كتابه مكانة الخليل فى النحو العربى ص ١٧٧ .

قال : « على أن تلك المصطلحات الكوفية لم يعيش منها إلا القليل نحو : النعت والنسق والأدوات ، وما عدا ذلك فقد بقيت المصطلحات البصرية شائعة ذائعة ، وكتب لكثير من المصطلحات التي جاءت على لسان الخليل وتلميذه سيبيويه أن تخلد وتبقى على مرّ الأيام نحو الاسم والفعل والحرف والفاعل ... إلخ » ^(١) .

ويبدو أن ما شاع من المصطلحات على أنه مصطلح كوفى إنما هو بصرى النشأة والنمو ، وقد انتقل إلى بيئة كوفية ، ولعل ما ورد عند الخليل من استخدامه (النسق) لدليل على ذلك ، وأيضاً لاستخدامه مصطلح (النعت) الوارد ذكره فى كلام الباحث على أنه كوفى إنما هو بصرى أيضاً وسيأتى ذكر ذلك بعد قليل .

لم يبق لنا إذن إلا الاعتراف فى نهاية الأمر بأن مصطلح (النسق) مصطلح بصرى ، وليس كوفياً على الإطلاق ، بل أخذه الكوفيون نقلاً عن الخليل ، وشاع فى استخدامهم ، فظنه البعض كوفياً ، وهو ليس كذلك .

الجحد (الجحود) :

جحد يجحد جَحْدًا وجحودًا أنكره مع علمه ^(٢) وفى « العين » ^(٣) الجحود ضد الإقرار كالإنكار والمعرفة ، إذن الجحد والجحود بمعنى الإنكار ، وقد ورد هذا المصطلح بالمعنى نفسه عند الخليل فى ذكره للمرة الأولى عندما كان يتحدث عن حروف نصب الفعل المضارع فقال ^(٤) :

وانصب بها الأفعال كيما واجبا .: وبكى وكيلا والحروف تشعب .
وبأن ولام الجحد واللام التى .: هى مثلا كيلا فى الكلام وأرسب .

(١) مكانة الخليل فى النحو العربى ص ١٧٨ .

(٢) القاموس المحيط ٢٩٠ / ١ .

(٣) معجم « العين » للخليل ٧٢ / ٣ .

(٤) المنظومة البيتان ١٤٠ ، ١٤١ .

فلام الجحد هي اللام الناصبة للمضارع بأن مضمرة وجوباً بعدها ، وهي التي تشيع على ألسنة المتعلمين اليوم بـ (لام الجحود) كما فى قوله تعالى : « ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ^(١) .

وفى موضعين آخرين من منظومة الخليل ذكر الجحود بمعنى « النفى » حسبما شاع المعنى بعد ذلك عند الكوفيين . فعندما تكلم الخليل عن نصب الفعل المضارع بعد فاء السببية وتحت عنوان « باب الجواب بالفاء » يقول الخليل موضعاً هذا الأمر :

وإذا أتتك الفاء عند جوابها .: فانصب جوابك والكفور مخيب
عند الجحود وعند أمرك كله .: ومن الكلام مترس ومبوب

فالفعل المضارع إذا وقع بعد الفاء جواباً فإنه ينصب إذا سبقه نفى أو أمر
... إلخ ولهذا جاء (الجحود) هنا بمعنى النفى كما فى قوله تعالى : « لا يقضى عليهم فيموتوا » ^(٢) .

وفى المرة الثالثة تحت عنوان « باب التبرئة وهى لا تقع إلا على نكرة » يقول الخليل ^(٣) :

باب التبرى النصب فاعرف حده .: لا شك فيه مثل من يستصحب
وهو الجحود وما ابتدأت فإنه .: لا ظلم من رب البرية يرهب

ف (لا) التى للتبرئة هى (لا) النافية للجنس الداخلة على نكرة هى (لا) التى للجحود ومثالها كما أورد الخليل (لا ظلم من رب البرية يرهب) .

(١) سورة الأنفال ٣٣ .

(٢) سورة فاطر الآية ٣٦ .

(٣) المنظومة البيتان ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

وورد هذا المصطلح لدى الخليل يؤكد أنه بصرى أخذه الكوفيون من الخليل فشاع على ألسنتهم ، وبهذا فلا مجال لقول بعض المحدثين إن هذا المصطلح كوفى يعنى النفى ، يقول الدكتور مهدى المخزومى^(١) عن هذا المصطلح (الجحد): « ويعنى الكوفيون به ما يعنيه البصريون من كلمة النفى ، والنفى مصطلح بصرى ، مقتبس من ألفاظ المتكلمين ، وكلامهم فى الثبوت والثبات ، والنفى والنفى ، وقد جاءت كلمة « الجحد » فى كلام الفراء وثعلب كثيراً ، ولا أعلم أنهما استعمالاً كلمة « النفى » . »

وتعليقى على ذلك ، أنه ليس معنى أن المصطلح وارد فى كلام الفراء وثعلب كثيراً أن يكون المصطلح كوفياً ، فالفراء وثعلب تتلمذا على يد البصريين ، بل إن الفراء تتلمذ على كتاب سيبويه عاكفاً عليه^(٢) ، كما أنه ليس عدم ورود النفى فى كلامهما دليلاً على ذلك ، فليس لدينا - بشكل مؤكد - كل تراثهما المخطوط حتى نتيقن من ذلك . إضافة إلى أن وجود هذا المصطلح المتكرر عند الخليل يؤكد عدم صحة أن المصطلح « كوفى » ، والذي أذهب إليه أن الخليل استخدم مصطلح (الجحد أو الجحد) كما استخدم كلمة (النفى) ومع مرور الزمن شاع مصطلح (الجحد) للإنكار واستخدمه النحاة مع (لام الجحد) التى ينصب المضارع بعدها بأن مضمرة وجوباً ، وشاع مصطلح (النفى) بمعناه الحقيقى ضد الإيجاب والثبوت فجاءت لا النافية وما النافية ... إلخ ، حيث كان يُستخدم مصطلح (الجحد) بمعنى النفى .

إذن كان الجحد والجحد يتبادلان موقعى الإنكار والنفى لدى الخليل - بالإضافة إلى استخدامه لمصطلح (النفى) - إلى أن استقر الأمر بعد ذلك على أن (الجحد) للإنكار والنفى للإيجاب، واختفى مصطلح الجحد رويداً رويداً .

(١) مدرسة الكوفة ٣٠٩ .

(٢) المدارس النحوية ٣٨ .

ولو قارنا بين ما ورد عند الخليل فى المنظومة منذ قليل وما ورد عنده فى كتابه الجمل لكان ذلك دليلاً على ما نحن بصده حيث استخدم (الجحود) مع اللام الناصبة للمضارع حين قال ^(١) : « ولام الجحود مثل قولك : ما كان زيد ليفعل ذلك ، وما كنت لتخرج . قال الله جلّ اسمه ^(٢) : (وما كان الله ليُضَيِّعَ إيمانكم) (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ^(٣) عملها النصب وهى مكسورة ، ومعنى الجحود إدخال حرف الجحد على الكلام ، وهو مثل قولك : ما كان زيد ليفعل » . والمتأمل لقول الخليل « ومعنى الجحود إدخال حرف الجحد على الكلام) يدرك أن المقصود بحرف (الجحد) أى حرف النفى ، ويكون معنى الجحود هو الإنكار . وهذا ما فعله عندما تكلم عن أنواع (لا) فقال ^(٤) : ولا الجحد نحو قال الله تبارك وتعالى ^(٥) : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لا يبعث الله من يموت بلى) . رفع يبعث ؛ لأنه فعل مستقبل ، وهو جحد . ومثله : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) ^(٦) . « يتخذ » رفع لأنه فعل مستقبل و « لا » فى معنى الجحد » .

هكذا يستخدم الخليل « الجحد » بمعنى النفى و (الجحود) بمعنى الإنكار وهذا أيضاً ما فعله فى الكلام عن (ما) عندما قال ^(٧) : « وما فى موضع الجحد كقولك : ما زيد أخانا ، وما عمرو عندنا ، قال الله جل وعزّ ^(٨) : (ما هذا بشراً) ، ومثله : (وما أنا عليكم بوكيل) ^(٩) (وما كان الله ليعذبهم

(١) الجمل فى النحو العربى ٢٥٣ .

(٢) سورة البقرة ١٤٣ .

(٣) سورة الأنفال ٣٣ .

(٤) الجمل فى النحو العربى ٢٩٦ .

(٥) سورة النحل ٣٨ .

(٦) سورة آل عمران ٢٨ .

(٧) الجمل فى النحو العربى ٣٠٥ .

(٨) سورة يوسف ٣١ .

(٩) سورة يونس ١٥٨ .

وأنت فيهم (^(١)) « مع ملاحظة أن الكلام هنا عن (ما) النافية فهي (ما)
الجحد واللام في (ليعذبهم) لام الجحود .

وربما كان الخليل في أول الأمر يستخدم الكلمتين (الجحد - الجحود)
مترادفتين ثم أراد تخصيص كل معنى وتحديد ، وهذا إن دل على شيء فإنما
يدل على عدم استقرار المصطلحات حتى عصر الخليل وسيبويه بل بعدهما
أيضاً ، كذلك يدل على أن الخليل قد استخدم (المصطلح) قبل الكوفيين .
أما إشارة الدكتور مهدي المخزومي السابقة إلى أن البصريين اقتبسوا
مصطلح (النفي) من ألفاظ المتكلمين ، فهو كلام يحتاج إلى وقفة ليس مجال
الحديث عنها الآن .

الغاية :

الغاية - كما جاء في « العين » ^(٢) - هي مدى كل شيء وقصاره ، وقد
استخدمها الخليل كمصطلح نحوي في منظومته موطن الدراسة تحت باب
بعنوان : « باب قبل وبعد إذا كانتا غاية » قائلاً تحت هذا العنوان ^(٣) :

وتقول قبل وبعد كنا قادة .: من قبل أن يأتي الأمير الأغلب
لما جعلت كليهما لك غاية .: أوجبت رفعهما وصحّ الشعب

وإذا كان هذا المصطلح (الغاية) قد ورد عند الخليل فليس صحيحاً ما ورد
في كتاب المدارس النحوية ^(٤) حيث يقول صاحبه : « وأول من استعمل
« الغاية » الفرّاء في كلامه على الشاهد وهو قول الشاعر :

(١) الأنفال ٣٣ .

(٢) معجم العين ٤٥٧/٨ آخر الجزء الرابع ، وانظر القاموس المحيط ٣٧٥/٤

(٣) البيتان ١٦٩ ، ١٧٠ من منظومة الخليل .

(٤) الدكتور إبراهيم السامرائي ص ١٢٩ نقلاً عن معاني القرآن للفرّاء ٣/ ٣٢٠ .

إذا أنا لم أو من عليك ولم يكن .: لقاؤك إلا من وراء وراء
قال (يعنى الفراء) : « ترفع - أى وراء وراء - إذا جعلته غاية ولم تذكر
بعده الذى أضفته إليه . . . ومثله قول الشاعر :

لعمرك ما أدري وإنى لأوجل .: على أينما تعدو المنية أول
رفعت (أول) لأنه غاية ، ألا ترى أنها مستندة إلى شيء هى أوله «
ا.هـ.

وواضح من النص السابق أن الباحث يتكلم بيقين مطلق ، ولم يعن نفسه
بالبحث فى الكتب السابقة على الفراء ، حتى كتاب سيبويه لم يذهب إليه ،
وأصدر هذا الحكم دون تريث منه أو أناة . فالملاحظ أن هذا المصطلح ورد فى
مواضع ثلاثة قبل وروده عند الفراء ، ومع ذلك لم يعثر الباحث على موضع
واحد حتى يحكم حكماً صحيحاً . هذه المواضع الثلاثة هى :

- (١) ذكره الخليل فى منظومته النحوية كما مرّ منذ قليل .
- (٢) ذكره الخليل فى كتاب « الجمل فى النحو العربى » فى أكثر من موضع .
- (٣) ذكر هذا المصطلح فى كتاب سيبويه أكثر من مرة ، وفى إحدى المرات
جاء على لسان الخليل فى « الكتاب » .

أما ذكر مصطلح « الغاية » فى كتاب « الجمل » للخليل فقد وجدت
المصطلح مذكوراً مرتين ، وربما كان أكثر من ذلك . يقول الخليل ^(١) :
« والخفض بحتى إذا كان على الغاية قولهم : كلمت القوم حتى زيد معناه :
حتى بلغت إلى زيد ، ومع زيد ، وقال الله جلّ ذكره ^(٢) : (سلام هى حتى
مطلع الفجر) . معناه إلى مطلع الفجر ، وفى موضع آخر من كتاب

(١) الجمل ١٨٤ .

(٢) سورة القدر الآية ٥ .

« الجمل » يقول الخليل ^(١) : « والرفع بالبنية مثل : حيثُ وقط ، لا يتغيران عن الرفع على كل حال ، وكذلك : قبلُ وبعدُ إذا كانا على الغاية . وفي لغة بعضهم « حيثَ » بالفتح » . وقد ورد عند سيبويه فى الكتاب هذا المصطلح بدلالته السابقة ، بل ورد فى موضع أشبه بالموضع السابق حين يقول سيبويه ^(٢) : « فأما ما كان غايةً نحو : قبلُ وبعدُ وحيثُ ، فإنهم يحركونه بالضمّة ، وقد قال بعضهم حيثَ ، شبهوه بأين » .

والمأمل لكلام سيبويه يستطيع ملاحظة ما يلى :

أولاً : ورود هذا المصطلح لديه عندما قال « فأما ما كان غاية » كما ورد عند الخليل فى الموضع نفسه .

ثانياً : وجود تشابه كبير فى كيفية تقديم القاعدة النحوية إلى حد يمكن أن نقول معه إن سيبويه لابد أن يكون قد أخذ ذلك عن الخليل حتى فى التركيب حين قال الخليل : (وفى لغة بعضهم « حيثَ » بالفتح) وعند سيبويه (وقد قال بعضهم حيثَ) أما (قط) الواردة لدى الخليل مع حيث فلم يتركها سيبويه لأنه بعد قليل من الكلام السابق وفى الصفحة نفسها قال ^(٣) : « وحركوا قط وحسب بالضمّة لأنهما غايتان » ، وأما قول سيبويه ^(٤) : « وقد قال بعضهم حيثَ شبهوه بأين » فكأنه مأخوذ من كلام الخليل حين قال فى الموضع السابق نفسه ^(٥) (الكلام عن حيث وقط) : « وإذا كان الحرف المتوسط منه ساكنًا حرّك بالفتح ، لئلا يسكننا مثلُ : أين وكيف وليت وأنّ وحيثَ وأشباه ذلك فاعرف

(١) الجمل ١٤٨ .

(٢) الكتاب ٢٨٦/٣ .

(٣) السابق نفسه .

(٤) السابق نفسه .

(٥) الجمل فى النحو العربى ١٤٩ .

موضعها » ولعلنا لا نحتاج بعد ذلك إلى شيء يؤكد أن سيبويه قد أخذ عن الخليل هذه القاعدة ونقل عنه هذا المصطلح وإن لم يشر إلى ذلك وكلام سيبويه عن (قط) الوارد في قوله ^(١) : « وكذلك قط وحسب (تضمنان) إذا أردت ليس إلا ، وليس إلا ذا ، وإذا بمنزلة قط إذا أردت الزمان ، لما كن غير متمكنات فعل بهن ذا . وحرّكوا قط وحسب بالضمّة لأنهما غايتان . فحسب للانتهاء ، وقط كقولك : مذ كنت » فإن القول السابق يتشابه مع ما ورد عند الخليل في منظومته حينما يقول عن (قط) ^(٢) :

فإذا أردت بها الزمان فرفعها .: أهيا وأتقن في الكلام وأصوب
لم يحمنى قط ابن أمّى في الوغى .: يوم الكريهة والفوارس تسلب
من حيث القاعدة ، وإن اختلف التمثيل والأداء بالنظم .

وقد نقل سيبويه على لسان الخليل نصّا يذكر فيه الخليل مصطلح الغاية صراحة مع تكراره أربع مرات مع أن النص قصير جداً يقول سيبويه ^(٣) : « اعلم أن حتى تنصب على وجهين :

فأحدهما : أن تجعل الدخول غاية لمسيرك ، وذلك قولك : سرت حتى أدخلها ، كأنك قلت : سرت إلى أن أدخلها ، فالنصب للفعل ها هنا هو الجار للاسم إذا كان غاية . فالفعل إذا كان غاية نصب ، والاسم إذا كان غاية جر . وهذا قول الخليل » .

(١) الكتاب ٢٨٦/٣ .

(٢) المنظومة البيتان ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٣) الكتاب ١٧/٣ ، وانظر الكتاب ٢٠/٣ فقد أتى الخليل بنموذج لـ (حتى) التي ليست للغاية وذكر (الغاية) مرتين آخرين .

وسيبيويه الناقل الأمين لفكر الخليل ومصطلحاته يثبت بذلك استخدام الخليل لمصطلح (الغاية) فى (الكتاب) .

وقد ذكر مصطلح (الغاية) لدى سيبويه فى موضع آخر من الكتاب حينما قال ^(١) : « وأما منذ فضمت لأنها للغاية » والغالب أن هذا الرأى للخليل أيضاً .

ولم يبق فى نهاية الأمر إلا أن نؤكد أن الفراء مسبوق فى استخدام هذا المصطلح بالخليل وسيبويه فى مواضع كثيرة ، وأن الأولوية المطلقة التى ذكرها الباحث ليست صحيحة .

الخفض :

استخدم الخليل مصطلح خفض فى مواضع متعددة ^(٢) خلال منظومته النحوية ، وكان المصطلح عنده واسع الدلالة فأحياناً يستخدمه مع الاسم المنون « ما يجرى » ومرة مع الاسم غير المنون « ما لا يجرى » ومرة يطلق المصطلح ويقصد كسر نون المثنى . . . إلخ وكأنه كان يساوى بين مصطلحى خفض والجر فى استخدام واحد مترادفين ، وإذا كان الخليل قد استخدمه فى المنظومة أكثر من أربع عشرة مرة ، إضافة إلى هذا التنوع فى الاستخدام ، فليس من حق النحاة المحدثين ^(٣) أن يشيروا إلى « أن الكوفيين توسّعوا فى « خفض » فاستعملوه فى الكلمات المنونة وغير المنونة ، بعد أن كان الخليل لا يستعمله إلا فى المنون » فهذا كلام يفتقد الدقة ؛ لأن سيبويه قد توسّع فى استخدام المصطلح قبل استخدام الكوفيين له أصلاً ، فاستخدمه مع المنون وغير المنون .

(١) الكتاب ٢٨٧/٣ .

(٢) المنظومة فى الأبيات التالية ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٨٦ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٧٠ ، ١٨٥ ،

١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٥٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ وقد ذكر المصطلح ما بين «الخفض» «خفضت» «اخفض» .

(٣) مدرسة الكوفة ، د. مهدي المخزومي ص ٣١١ ، وانظر المدارس النحوية ص ١٣٢ .

وفيما يلي بعض النصوص الواردة في المنظومة توضح صور استخدام الخليل لهذا المصطلح . يقول الخليل ^(١) عن المثني .

رجلان أو أخوان فاعلم أنه .: كالخفض نصبهما معاً يا حوشب
والنون في (الاثنين) خفض .: في الجمع تنصب تارة وتقلب

ففي البيت الأول جاء النصب كالخفض في المثني بالياء والنون ، والمثني ليس منوناً ، وفي البيت الثاني جاء « الخفض » مقصوداً به كسر نون المثني ، حيث جاء النصب مقصوداً به فتح نون الجمع .

وفي موضع آخر يقول الخليل ^(٢) في باب ما يجرى وما لا يجرى :

فامرر بأحمد إن رأيت وأحمد .: دون المدينة قد تجلّى الغيب
فنصبت أوله لمعرفتي به .: وخفضت إذ نكرته لا أرهب

وقصد الخليل هنا أن كلمة « أحمد » الأولى جاءت بالفتحة لقصد تعريفها وهي غير منونة للعلمية ووزن الفعل فجرتْ وعلامتها الفتحة ^(٣) ، أما كلمة « أحمد » الثانية فقد جاءت مجرورة عطفاً على الأولى ، وعلامتها الكسرة لأنها منونة ، والكلام هنا مخالف لما ذكره صاحب كتاب مدرسة الكوفة ؛ فالخليل ذكر « الخفض » وقصد به البناء على الكسر حينما قال ^(٤) في باب « إذا أردت أمس بعينه » :

فإذا قصدت تريد أمس بعينه .: فالخفض حليته الذي يستوجب

(١) المنظومة البيتان ٣٠ ، ٣١ .

(٢) المنظومة البيتان ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٣) مع الوقوف بحذر أمام استخدام الخليل للنصب في قوله « فنصبت أوله » لأن النصب كمصطلح نحوي له دلالة الخاصة البعيدة عن الجر .

(٤) المنظومة البيت ٢٥٢ .

والمعروف عند النحاة أن بناء كلمة (أمس) على الكسر لا يكون إلا إذا قصد بها التعريف ؛ ودلالاتها تنصبّ على اليوم الذى قبل يومنا مباشرة ، ففي هذه الحالة تبني ، أما إذا قصد بها أى يوم مضى فإنها تعرب ^(١) ، فالخليل إذن كان يقصد بالخفض البناء .

ولابد من الإشارة إلى أن الخليل لم يقتصر فى ذكره لمصطلح الخفض فيما يروى عنه أو فى نصوص جاءت على لسانه مثلما ورد فى المنظومة - كما أوضحنا سابقاً - ومثلما ورد فى كتابه الجمل ^(٢) بالإضافة إلى ورود هذا المصطلح فى معجم العين ^(٣) عندما قال : « جاء قبلَ عبدِ الله ، وهو قبلَ زيدٍ قادمٌ . وإذا أُلقيت عليه (من) صار (قبلِ) فى حدِّ الأسماء نحو قولك : من قبل زيد فصارت (من) صفةً ، وخُفِضَ قبل ب (من) ، فصار (قبل) منقاداً ب (من) وتحوّل من وصفيته إلى الاسمية » فمن للخفض صراحة على لسان الخليل فى كل ما رجعنا إليه فى منظومته النحوية وكتاب الجمل ومعجم العين وما روى عنه فى كتب كثيرة ، لهذا - كما يقول أحد الباحثين المحدثين ^(٤) - « فالوجه أن يقال إن الخليل أول من استعمل الخفض ، فقد

(١) انظر القضية بالتفصيل فى كتاب التعريف والتنكير فى النحو العربى ص ١٧٥ إلى ١٨٣ لكاتب هذه السطور .

(٢) انظر على سبيل المثال صفحتى ١٧٢ ، ١٧٣ فقد ورد المصطلح أربع عشرة مرة خلال هاتين الصفحتين فقط .

(٣) العين ١٦٦/٥ .

(٤) المدارس النحوية، د. السامرائى ١٣٢ ، وقد أشار الدكتور إبراهيم السامرائى إلى أنه نقل هذا رأى للخليل من كتاب الإيضاح فى علل النحو للزجاجى ص ٩٣ بتحقيق الدكتور مازن المبارك طبعة القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م ، وقد بحث عن هذا رأى فى الطبعة الخامسة ، وهى طبعة القاهرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ولم أعثر على هذا رأى للخليل ، وهناك إشارة فى الطبعة الخامسة إلى أن الطبعة الأولى كانت عام ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م وليس التاريخ الذى ذكره الدكتور السامرائى ، ولعله نقل هذا رأى من مصدر آخر لا من هذا المصدر. وعلى أية حال فالخليل يستخدم الخفض فى أعجاز الكلمات المنونة وغير المنونة كما ذكر منذ قليل .

أطلقه على ما وقع من أعجاز الكلم منوئاً نحو : زيد وخالد ، وكأنه الكوفيين تابعوا الخليل في هذا المصطلح » ، والذي لا شك فيه أن الخليل استخدم (الخفض) ، لكنه لم يستخدمه لأعجاز الكلم المنون فقط كما أشار الدكتور السامرائي فالخليل استخدم (الخفض) مع الأعجاز غير المنونة أيضاً ، ولعل ما ذكره في منظومته ^(١) وفي كتاب الجمل ^(٢) في مواضع كثيرة ما يدل على هذا الرأي ، وعلى الرغم من أن الدكتور مهدى المخزومي ذكر هذا الرأي فإنه يؤمن بأن « مصطلح الخفض ليس من وضع الكوفيين ولا الجرّ من وضع البصريين ؛ وإنما هما مقتبسان من أوضاع الخليل ومصطلحاته إلا أن الكوفيين توسعوا في الخفض ^(٣) . . . إلخ » ، فكما أن الخليل استخدم مصطلح (الخفض) فإنه استخدم مصطلح الجر كثيراً في مواضع متعددة من الأقوال المنقولة عنه ^(٤) ، وفي منظومته النحوية يوجد « باب حروف الجر » ^(٥) قال الخليل ^(٦) بعده مباشرة :

وحروف خفض الجرّ عندى جمّة
فيها البيان لمن أتانى يطلب
ما بعدها خفض ورفع فعلها
ولقد تلوح كما تلوح الأشهب

ولعل قول الخليل (خفض الجر) من قبيل إضافة الشيء إلى مرادفه كما أشار النحاة إلى جواز ذلك ، فقد نقل عن كثير من النحويين منهم الأخفش

(١) أبيات كثيرة من المنظومة منها البيت ٢٥٢ الذي ذكر منذ قليل مع (أمس) .

(٢) الجمل ص ١٧٢-١٨٩ نماذج كثيرة لذلك .

(٣) مدرسة الكوفة ٣١١ .

(٤) الكتاب ١٦٢/٢ ، ١٦٣ ، الجمل ١٧٢ وما بعدها .

(٥) لا أدري هل هذا العنوان من وضع الخليل أم من وضع نسّاخ المخطوطة ؟

(٦) المنظومة البيتان ٣٢ ، ٣٣ .

والفرء جواز إضافة الشيء إلى مرادفه أو إلى نفسه وجعلوا من ذلك نحو (ولدار الآخرة) - (وحق اليقين) - (وحبل الوريد) - (وحب الحصيد) وظاهر كتاب التسهيل وشرحه الموافقة على الرأى السابق ^(١) وكأن الجميع استقوا من نبع الخليل ، واغترفوا من استخداماته وآرائه ومصطلحاته .

نستطيع أن نخرج من كل ذلك بأن الخليل قد استخدم مصطلح الخفض استخداماً واسع الدلالة للمعرب والمبنى على السواء ، كذلك استخدم مصطلح الجر للكلمات المعربة سواء كان آخرها منوناً أو غير منون ، وسواء كان إعرابها بالحركات أو بالحروف ، ولم يستخدم الجر للأفعال ، وهذا عكس ما قاله الخوارزمي ونسبه إلى الخليل حين يقول ^(٢) : « والجر وهو ما وقع فى أعجاز الأفعال المجزومة عند استقبال ألف الوصل نحو : لم يذهب الرجل » ولا أظن أن ذلك صحيح من الخوارزمي ، فقد كان الخليل يسمي ذلك كسراً . قال سيبويه ^(٣) : « وسألته (أى الخليل) رحمه الله عن الضاربى (أى لماذا لم تدخل نون الوقاية قبل الياء) فقال : هذا اسم ، ويدخله الجر ، وإنما قالوا فى الفعل : ضربنى ويضربنى ، كراهية أن يدخلوا الكسرة فى هذه الباء ، كما تدخل الأسماء ، فمنعوا هذا أن يدخله كما منع الجر . فإن قلت : قد تقول اضرب الرجل فتكسر ، فإنك لم تكسرها كسراً يكون للأسماء ، إنما يكون هذا لالتقاء الساكنين ، قال الشعراء ليتى إذا اضطروا ، كأنهم شبهوه بالاسم حين قالوا الضاربى » فالخليل يقصد وجود كسرة على آخر الفعل وليس (الجر) كما قال الخوارزمي . فالفعل لا يعجر ، والجر من خصائص الأسماء ، فالخليل كان

(١) حاشية الصبان ٢/ ٢٥٠ ، شرح الأشموني ٢/ ٢٥٠ ، النحو الوافى عباس حسن ٣/ ٥١ فقد نقل عن صاحب المصباح المنير مادة (ظهر) (ظهر غنى) أى نفس الغنى ، (نسيم الصبا) وهى نفس الصبا . قاله الأخفش وحكاه الجوهري عن الفرء . والعرب تضيف الشيء إلى نفسه .

(٢) مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٣٠ .

(٣) الكتاب ٢/ ٣٦٩ ، ٣٧٠ وما بين الأقواس إضافة تفسيرية يقتضيها الموقف .

ذا عقلية دقيقة ولا يفوته مثل هذه الأخطاء . فمما ورد عنه أنه كان يفرق بين مصطلحي الخفض والجر كما حكاه الزجاجي عندما قال ^(١) : « إن الخليل سأل الأصمعي (تلميذه) أن يفرق بين مصطلحي الخفض والجر » وإذا كان الخليل حريصاً مع تلاميذه على التفرقة بين مصطلحي الخفض والجر ، فمن باب أولى يكون حريصاً على التفرقة بين الجر والكسر .

الفعل :

تكررت كلمة (الفعل) عند الخليل في منظومته النحوية كثيراً ^(٢) كما وردت في كتاب سيبويه على لسان الخليل ، ولعل النص المنقول عن سيبويه منذ قليل عند الكلام عن الخفض يثبت ذلك ، فقد نقل سيبويه عن الخليل قوله ^(٣) : « وإنما قالوا في الفعل : ضربني ويضربني كراهية أن يدخلوا الكسرة في هذه الباء كما تدخل الأسماء » ، ولم يبعد ذلك عن استخدام الخليل لمصطلح الفعل في كتابه الجمل ^(٤) حين قال في باب الجزم بالمجازاة : « وتقول : إن تزرني وتكرمني أزرُك وأكرمك . وهذا الفعل الذي أدخلت عليه الواو يرفع وينصب ويجزم ، فمن جزم نسقه بالواو على الأول ، ومن نصب فعلى القطع من الكلام الأول ، ومن رفع فعلى الابتداء » ^(٥) .

وإذا كان الخليل قد استخدم مصطلح (الفعل) بهذه الرحابة فإننا نرفض قول أحد الباحثين المحدثين ^(٦) : « الفعل من مصطلحات الكوفيين فقد أطلقه

(١) مجالس العلماء ١٣٢ .

(٢) الأبيات ٧٠ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ... إلخ .

(٣) الكتاب ٣٦٩/٢ .

(٤) ص ١٩٥ .

(٥) لعله يقصد العطف على جواب الشرط في (وأكرمك) حيث تجوز الأوجه الثلاثة ، لأن العطف على فعل الشرط يجيز وجهين فقط هما الجزم والنصب ، أما قوله : « ومن نصب فعلى القطع من الكلام الأول » فيحتاج إلى تفسير حيث يكون النصب على أن الواو للمعية لا القطع .

(٦) الدكتور إبراهيم السامرائي في المدارس النحوية ص ١٢٣ ..

الفراء على خبر المبتدأ مع دلالته المشهورة على الحدث « ولعل ذكر الخليل لمصطلح الفعل ؛ كما ورد فى كتاب سيبويه ، وفى كتابه (الجمل) لدليل على أن الخليل قد استخدمه ، بل ربما يكون أول من استخدمه ونقله عنه تلاميذه ، ثم نقل إلى مدرسة الكوفة عن طريق الفراء ، والخليل قد استخدم مصطلح الفعل فى منظومته بالدلالة السابقة التى أشار إليها الفراء ، وأيضاً بدلالته الحديثة الزمنية ، ومثال الاستخدام الثانى قول الخليل عن نصب المضارع بحروف كى ولن وأن ... إلخ يقول (١) :

وانصب بها الأفعال كيما واجبا .: وبكى وكيلا والحروف تشعب
وبأن ولام الجحد واللام التى .: هى مثل كيلا فى الكلام وأرسب
كيلا أقول ولن يسير محمد .: حتى يسير إلى العدو الموكب

وأحياناً يطلق الخليل (الفعل) ويقصد به مطلق المصدر (مطلق الحدث)
الكامن فى الوصف المشتق الواقع صفة أو حالاً يقول (٢)

وإذا جمعت مذكراً ومؤنثاً .: فالفعل للذكران منهم يغلب
وتقول لكم ظبية ونعامه .: فيها وثور راتعين وقرهه

وفى الكتاب يستخدم الخليل (الفعل) بمعنى المصدر أيضاً (٣) ، وفى
منظومته النحوية الفعل بمعنى الخبر صراحة ، وذلك عندما يقول (٤) تحت باب
(إذا قدمت الأسماء على الأخبار تقديم الفعل) بيتين ينصان على ذلك
صراحة ، وكذلك تحت (باب حروف كان وأخواتها يقول الخليل) (٥) .

(١) المنظومة الأبيات من ١٤٠ إلى ١٤٢ .

(٢) المنظومة البيتان ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٣) الكتاب ١٢٠ / ٢ .

(٤) المنظومة البيتان ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(٥) المنظومة البيتان ٦٢ ، ٦٣ .

وحروف كان وليس فاعلم ترفع ال .: أسما وتتبعها النعوت فتذهب والنصب فى أفعالها لا تجهلن .: إن الجهول من الرجال مخيب

وإذا كان الخليل قد استخدم (الفعل) بهاتين الدالتين ، فليس الفراء سباقاً إلى استخدام المصطلح كما ذكر الباحث ، حتى وإن توسّع فى استخدام المصطلح حيث ذكر (الفعل) وقصد به المفعول الثانى كما جاء فى قوله تعليقاً على الآية الكريمة التى تقول ^(١) (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى) حيث قال الفراء ^(٢) : « إن شئت أوقعت (جعل) على (هارون أخى) وجعلت الوزير (فعلاً) له » ؛ أى مفعولاً ثانياً مما أدى إلى قول الباحث نفسه ^(٣) : « فأنت ترى أن (الفعل) قد أطلق على ثلاث مواد هى : الفعل والخبر والمفعول به الثانى ، وإذا أضفنا إليه المصدر الذى هو (الفعل) فى مصطلح اللغويين كان (الفعل) دالاً على أربع مواد ، وليس هذا عنصر قوة فى المصطلح » ولعل توسعة الخليل للمصطلح واستخدامه له بكل هذه الدلالات - مع اضطراب ذلك - يدل على أن الخليل قد سبق الكوفيين بشكل عام والفراء بشكل خاص فى استخدام هذا المصطلح .

النتى :

ذكر الخليل مصطلح (النعت) فى منظومته أكثر من مرة ^(٤) وقصد به الصفة ، وها هى ذى بعض النماذج الدالة على ذلك ، قال الخليل ^(٥) :

فالمبتدا رفع جميع كلّه .: ونعوته ولذاك باب معجب

(١) سورة طه الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) معانى القرآن ١٧٨/٢ .

(٣) المدارس النحوية ١٢٤ .

(٤) المنظومة الأبيات ٤٦ ، ٦٢ ، ١١١ ، ١٣٠ .

(٥) المنظومة البيت ١٣٠ .

وقال ^(١) :

الفاعلون من الخلائق كلهم .: أسماؤهم مرفوعة لا تنصب
ونعوتهم وكناهم وحلاهم .: والنصب للمفعول حقاً أوجب

بل إنه ينص صراحة على أن النعوت تابعة في قوله ^(٢) :

وحروف كان وليس فاعلم ترفع ال .: أسما وتتبعها النعوت فتذهب

ولم يقتصر استخدام الخليل لهذا المصطلح في المنظومة ، بل استخدمه في
كتابه الجمل متكرراً حيث قال ^(٣) : « والنصب من نعت النكرة تقدم على
الاسم تقول : هذا ظريفاً غلاماً ، وهذا واقفاً رجل . قال الشاعر ^(٤) :

وتحت العوالى والقنا مستظلة .: ظباء أعارتها العيون الجآزر
نصب (مستظلة) ؛ لأنه نعت (ظباء) تقدم ... إلخ » .

لم يتوقف ذكر الخليل لمصطلح النعت على المنظومة أو كتاب الجمل بل إنه
ذكر في الكتاب مقصوداً به النعت يقول الدكتور (جعفر نايف عبابنة) ^(٥) :

« النعت ، ويعنى به الصفة قال سيبويه : (وتقول يا أيها الرجل وزيدُ الرجلين

(١) المنظومة البيتان ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) المنظومة البيت ٦٢ .

(٣) الجمل ٧٥ ، ٧٦ حيث تكرر في الصفحتين خمس مرات .

(٤) قائله ذو الرمة ، وقد ورد في الكتاب لسبويه منسوباً ١٢٢/٢ ، ١٢٣ شرح المفصل ٦٤/٢ ،
(عوالى القنا) صدرها ، (العوالى) جمع عالية وهى أعلى الهودج ، (القنا) عيدان الهودج
(الظباء) جمع ظبية (الجآزر) جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية ، والمعنى أنه يصف نسوة
سبين فصرن تحت عوالى الرماح وفى حوزتها .

(٥) مكانة الخليل في النحو العربى ص ١٦٣ وانظر الكتاب ١٩٥/٢ وقد أضاف المحقق الأستاذ عبد
السلام هارون نصاً فى الهامش للسيرافى يذكر فيه النعت صراحة ، وقد نقله الدكتور جعفر عبابنة
على أنه تفسير لنص الخليل دون أن يشير إلى أنه نص السيرافى ، حتى الإشارة إلى الصفحة فى
كتاب سيبويه خطأ فى طبعة بولاق التى استخدمتها .

الصالحين ، من قبل أن رفعهما مختلف « أى رفع الرجل وزيد » وذلك أن زيداً على النداء ، والرجل نعت « يعنى صفة لأى » ولو كان بمنزلة « أى لو كان زيد بمنزلة الرجل » لقلت : يا زيدُ ذو الجُمَّة كما تقول : يا أيها الرجل ذو الجُمَّة . وهو قليل الخليل .

فسيبويه يشير إلى قول الخليل : « الرجل نعت » ، وإذا كان ذكر ذلك صراحة واعترف الدكتور جعفر بذلك فإن المصطلح إذن يكون بصرياً ، وقد ورد المصطلح أيضاً على لسان سيبويه كثيراً^(١) . كما ذكره السيرافى وغيره من النحاة البصريين ، وإذا كان الأمر كذلك فليس من الصحيح أن يناقض الدكتور جعفر نفسه فيقول بعد خمس عشرة صفحة فقط ما يلى^(٢) : « على أن تلك المصطلحات الكوفية لم يعيش منها إلا القليل نحو : النعت والنسق والأدوات » فهل نسى الدكتور ما قاله قبل قليل ؟ وهل تجاهل ما ورد عند سيبويه الذى كرّر المصطلح عشرات المرات ، بل ربما أكثر من ذلك فى كتابه ؟ إذا كنا نلتمس له العذر فى نسبته لمصطلح (النسق) على أنه كوفى لخطأ شاع وعدم إطلاعه على كتاب (الجمل) للخليل أو عدم قراءته للمنظومة ، فكيف نلتمس له العذر فيما ذكره ثم نسيه أو غفل عنه بعد قليل ؟

إذن فليس هذا المصطلح كوفياً كما قيل ، وربما كان الكوفيون أكثر استخداماً للمصطلح لكن المصطلح بصرى المولد والاستخدام ، والكوفيون تلاميذ فى مدرسة البصرة أخذوه عنهم ، فليس كل مستخدم للشىء مبدعاً له ، يقول الدكتور ابراهيم السامرائى^(٣) : إن سيبويه قد استعمل (النعت) الذى التزم به الكوفيون ، والذى أراه أن (النعت) قد عرفه البصريون الأوائل

(١) على سبيل المثال انظر الكتاب الجزء الأول من ص ٤٢١-٤٢٣ فقد تكرر مصطلح النعت أكثر من عشر مرات ، وذكر لدى السيرافى فى هامش كتاب سيبويه ١٩٥/٢ .

(٢) مكانة الخليل فى النحو العربى ١٧٨ .

(٣) المدارس النحوية ١٣٥ .

فاقتبسه الكوفيون والتزموا به . وكما وجد النعت فى كتاب سيبويه وجد كذلك فى آثار البصريين عامة كالمبرد والزجاجى وابن السراج .

ومنطلقاً من استخدام الخليل وسيبويه ونحاة المدرسة البصرية على كثرتهم لهذا المصطلح ، وكذلك منطلقاً من كلام الدكتور ابراهيم السامرائى نرفض كلام الدكتور مهدي المخزومي الذى تعاطف مع المدرسة الكوفية إلى درجة كبيرة حيث يقول ^(١) : « النعت من اصطلاح الكوفيين ، وربما قاله بعض البصريين أيضاً ، ويقابله عند البصريين (الصفة) و (الوصف) » .

وفى النهاية نؤكد على أن مصطلح (النعت) مصطلح بصرى استخدمه نحاة البصرة كثيراً ، كما استخدمه نحاة الكوفة اقتباساً من البصريين وعلى رأسهم الخليل وسيبويه .

الصفة :

استخدم الخليل مصطلح (الصفة) فى منظومته ^(٢) ، وقد جاء فى كتاب سيبويه هذا المصطلح على لسان الخليل مقصوداً به النعت ، يقول سيبويه ^(٣) : « واعلم أنه لا يجوز أن تصف النكرة والمعرفة ، كما لا يجوز وصف المختلفين ، وذلك قولك : هذه ناقة وفصيلها الراءعان فهذا محال ؛ لأن (الراءعان) لا يكونان صفة للفصيل ولا للناقة ، ولا تستطيع أن تجعل بعضها نكرة وبعضها معرفة . وهذا قول الخليل رحمه الله « فالكلمات : (تصف - وصف - صفة) مقصود بها النعت ، كما استخدم (الصفة) بمعنى التوكيد حيث يقول سيبويه ^(٤) : « وزعم الخليل رحمه الله أنه يستضعف أن يكون كلهم مبنياً على اسم أو على غير اسم ، ولكنه يكون مبتدأ أو يكون كلهم صفة ...

(١) مدرسة الكوفة ٣١٤ .

(٢) المنظومة الأبيات ١٠٢ ، ٢٢٥ ، ٢٦١ .

(٣) الكتاب ٥٩/٢ .

(٤) الكتاب ١١٦/٢ (بتصرف)

هكذا فيما زعم الخليل رحمه الله . وذلك أن كلهم إذا وقع موقعاً يكون الاسم فيه مبنياً على غيره ، شبه بأجمعين وأنفسهم ونفسه ، فألحق بهذه الحروف « . وقد قال في موطن آخر ^(١) : « وأما أجمعون فلا يكون في الكلام إلا صفة » وقد استخدم المصطلح أيضاً في كتابه الجمل حين يقول ^(٢) : « والنصب من نداء النكرة الموصوفة قولهم : يا رجلاً في الدار ، ويا غلاماً ظريقاً ، نصبت لأنك ناديت من لم تعرفه ، فوصفته بالظرف » .

وإذا كان الخليل قد استخدم (الصفة) بمعنى النعت مرة ، وبمعنى التوكيد مرة ، فلا نستبعد أن يستخدمها بمعنى الخبر الواقع ظرفاً عندما يقول في منظومته ^(٣) :

فإذا تقدمت الصفات فرفعها . : لا عندنا رجلٌ يصيد مكلّب

وربما كان استخدام الخليل للصفة بهذا المعنى سبباً في شيوعها عند الكوفيين فيما بعد وأطلق عليها (صفة تامة) يقول أحد الباحثين ^(٤) : « ويريد بها الكوفيون ما كان من الظرف خبراً ومحلاً للأسماء ، كقولك فيها زيد قائماً ، فالصفة فيها خبر للمبتدأ (زيد) ومحل له (أى ظرف) وهى صفة تامة ؛ لأنها محل الاسم » ولم يتعد الخليل كثيراً في استخدامه للمصطلح عن هذا المعنى في كتابه (الجمل) ^(٥) .

ويبدو أن مصطلح (الوصف) لم يكن قد استقر تماماً على يد الخليل وسيبويه والكوفيين الذين نقلوه عن المدرسة البصرية ، فمرة يستخدم بمعنى

(١) الكتاب ٣٧٩/٢ .

(٢) الجمل ٥٢ .

(٣) البيتان ٢٢٥ ، ٢٦١ وانظر معنى (مكلّب) في هامش البيت من المخطوطة .

(٤) المدارس النحوية ١٣٠ نقلاً عن الأصول لابن السراج ٢٤٧/١ بيروت .

(٥) الجمل ١٣٩ ، وقد أشار السيرافي إلى أن الكوفيين يطلقون عليه : (الظرف التام) انظر الكتاب

١٢٥/٢ هامش من كلام السيرافي بتعليق الأستاذ عبد السلام هارون .

النعت ، ومرة أخرى بمعنى التوكيد ، ومرة ثالثة بمعنى الظرف أو الجار والمجرور الواقعين خبراً ، ومرة رابعة بمعنى الصفة المشبهة ^(١) ؛ غير أن هناك محاولة جادة للفرقة بين (الوصف) بمعنى (النعت) و (النعت) كمصطلح مرادف للصفة ، فقد ذكر ^(٢) أن الخليل بن أحمد قال : إن (النعت) لا يكون إلا فى الصفات المحمودة ، وأن (الوصف) يكون فى المحمود وفى غيره من الصفات ، وبهذا يكون الوصف أعم من النعت حيث يقتصر (النعت) على المحمود ، ويعم (الوصف) المحمود وغيره .

الرفع :

استخدم الخليل فى منظومته (الرفع) فى حالة الإعراب فى معظم حالات استخدامه له ^(٣) ، كذلك استخدمه فى حالة واحدة مع البناء ، وهى حالة البناء مع المنادى حيث يقول ^(٤) :

فإذا دعوت من الأسمى مفرداً .: فارع فهو لك إن رفعت مصوب

وهذا ليس بعيداً عما ورد فى كتاب سيبويه ، فقد كان يستخدم دائماً الرفع فى حالة الإعراب ، وقليلاً جداً ما يستخدم المصطلح فى حالة البناء كما ورد فى موضع (النداء) الذى ذكرت الإشارة إليه فى بيت الخليل ، يقول سيبويه ^(٥) :
 « وزعم الخليل رحمه الله أنهم نصبوا المضاف نحو يا عبد الله ويا أخانا والنكرة حين قالوا : يا رجلاً صالحاً ، حين طال الكلام ، كما نصبوا : هو قبلك وهو بعدك . ورفعوا المفرد ، كما رفعوا قبل وبعد وموضعهما واحد ، وذلك

(١) الكتاب ١٩٣/١ .

(٢) الصحبى ص ٨٨ أحمد بن فارس القاهرة ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م .

(٣) الأبيات ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٩٦ ، ١٢٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ .

(٤) البيت ١٠٣ .

(٥) الكتاب ١٨٢/٢ وانظر ١٩٩/٢ .

قولك : يا زيد ويا عمرو وتركوا التنوين في المفرد ، كما تركوه في قبل « غير أنه كان يستخدم الضم في حالة البناء غالباً كما ورد في الكتاب ^(١) .

وفي كتاب (الجمل) للخليل لا يختلف استخدامه للرفع في حالة الإعراب مع الفاعل ^(٢) أو المبتدأ والخبر ^(٣) أو اسم كان ^(٤) وخبر إن ^(٥) . . . إلخ ، وفي موضع النداء ^(٦) وقبل وبعد ^(٧) أطلق عليهما (الرفع) كما تمّ ذلك من خلال أقوال سيبويه عنه وقد ذكر ذلك منذ قليل ، أما في بقية ما رواه في كتاب الجمل فإنه يستخدم مصطلح الرفع في حالة الإعراب .

ويلاحظ أن الخليل كان متسقاً مع نفسه فيما نقله عنه سيبويه وفيما ذكره في منظومته وفيما قاله في كتابه (الجمل) .

الجر:

استخدم الخليل مصطلح الجر في منظومته في حالة الإعراب ^(٨) وكان يستخدم معه مصطلح الخفض كما ذكرنا سابقاً ، غير أنه في حالات نادرة - ربما كانت الحالة الوحيدة - أن يستخدم الجر في حالة البناء ، يظهر ذلك في محاوره سيبويه له عن صفة المتأدى المفرد يقول سيبويه ^(٩) : « قلت : أأست قد زعمت أن هذا المرفوع في موضع نصب ، فلم لا يكون كقوله : لقيته أمس الأحداث ؟ قال : من قبل أن كل اسم مفرد في النداء مرفوع أبداً ، وليس كل اسم في موضع أمس يكون مجروراً ، فلما أطرد والرفع في كل مفرد في النداء ، صار عندهم بمنزلة ما يرتفع بالابتداء أو بالفعل ، فجعلوا وصفه إذا

(١) الكتاب ٣/ ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) انظر الجمل من ص ١١٥ إلى ص ١٢٧ .

(٦) الجمل ١٣٧ .

(٧) السابق ١٤٨ .

(٨) المنظومة البيت ٣٢ .

(٩) الكتاب ٢/ ١٨٣ .

كان مفرداً بمنزلة « ، غير أنه كان يستخدم الكسرة في حالة البناء غالباً ^(١) ، ولا يتعد هذا عما جاء عن الخليل في كتابه (الجمل في النحو العربي) ^(٢) .

النصب :

استخدم الخليل النصب في حالة الإعراب في منظومته كثيراً ^(٣) وكذلك في الكتاب كما نقله عنه سيبويه ^(٤) عندما قال : « وزعم الخليل رحمه الله أنهم نصبوا المضاف (المنادى المضاف) نحو يا عبد الله » ، ولم يتعد ما أورده الخليل في كتابه (الجمل) ^(٥) عما ورد في المنظومة أو الكتاب ، وقليل جداً ما كان يستخدم الخليل (النصب) في حالة البناء ، فقد تمّ في المنظومة ونقله عنه سيبويه ، ففي المنظومة ^(٦) عندما يصف حركة نون المثني ونون الجمع ، وصف نون الجمع بأنها في حالة (نصب) مع أن كسرتها كسرة بناء ، كذلك في كتاب سيبويه استخدم النصب ويقصد فتحة البناء وهذا قليل جداً ^(٧) وكذلك في كتابه الجمل عندما قال ^(٨) : « والنصب على البنية ، ما كان بناء بته العرب ، مما لا يزول إلى غيره مثل : الفعل الماضي ومثل حروف إن وليت ولعل ، وسوف ، وأين وما أشبهه » ، وهذه حالة ذكر فيها النصب وقصد البناء يقابلها خمسون حالة ذكر فيها النصب في حالة الإعراب ، وهي كل

(١) الكتاب ٢٨٣/٣ ، ٢٨٤ .

(٢) انظر في استخدامه لمصطلح الجر والخفض الجمل ١٧٢ ، ١٨٩ .

(٣) المنظومة البيت ٣٠ مع إعراب المثني في حالة النصب والأبيات ٤٢ ، ٤ ، ٤٦ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٦٨ ، ٢٠١ ، ٢١٩ ، ٢٣٠ .
استخدم النصب ويقصد به الجر في الممنوع من الصرف في البيت ٢٧٦ .

(٤) الكتاب ١٨٢/٢ .

(٥) ص ٣٣ حيث يقول : وإنما بدأنا بالنصب لأنه أكثر إعراب طرقاً ووجوهاً .

(٦) البيت ٣١ .

(٧) الكتاب ٢ / ٢٠٢ ، ٢٠٤ .

(٨) الجمل ٨٥ وهي حالة وحيدة من إحدى خمسين حالة .

حالات النصب الواردة فى الجمل ، ومن ناحية أخرى فإن الخليل كان يستخدم
الفتح فى حالة البناء ^(١) .

الجزم :

استخدم الخليل مصطلح (الجزم) فى منظومته بمعنى الوقف أو السكون
سواء أكان الفعل فى حالة البناء أم كان فى حالة الإعراب ، وفى حالة البناء
يقول عن فعل التعجب ^(٢) :

لا تفصلن بين التعجب واسمه .: فيعيبه يوماً عليك معيب .
وتقول أظرف بالفتى أحسن به .: أكرم بأحمد إنه لمهذب
فجزمته لما آتيت بلفظه .: بالأمر والمعنى لما يتعجب

وفى حالة أخرى من حالات الإعراب يقول ^(٣) :

والجزم سهل بابيه وحروفه .: فى النحو خمسة أحرف إذ تحسب
فتقول لم يرنى أخوك ولم يزر .: زيدا أخوه ولا بنوه ولا الأب

إذن كان الخليل يستخدم (الجزم) فى حالة سكون الحرف الأخير
من الكلمة سواء أكانت فعلاً فى حالة إعراب أم فى حالة بناء أو حتى مع
الحروف وقد جاء على لسان سيويه نقلاً عن الخليل ما يثبت ذلك حيث
يقول ^(٤) : « وسألت الخليل فقال لأن الفعل إذا كان مجزوماً
فحرك لالتقاء الساكنين كُسر . وذلك قولك : اضرب الرجل واضرب
ابنك » .

(١) الكتاب ٢/ ٢٢١ .

(٢) الآيات من ٩٩ - ١٠١ .

(٣) البيت ١١٦

(٤) الكتاب ٣/ ٥٣٢ ، ٥٣٣ (بتصرف) .

والفعل المجزوم عند الخليل هو (اضرب) حيث سَكَنَ آخره ، والمعروف عند النحويين الآن بأنه مبنى لا مجزوم ، ولكنه استخدام الخليل !

وفى موضع آخر من الكتاب ^(١) يقول سيبويه : « وقال الخليل رحمه الله : اللهم نداء فالميم فى هذا الاسم حرفان أولهما مجزوم ، والهاء مرتفعة لأنه وقع عليها الإعراب » والميم الأولى المجزومة لدى الخليل هى حرف ساكن فى غير الوقف .

لم يتعد الخليل فى اورد عنه فى كتاب سيبويه عما قاله فى منظومته النحوية، وكذلك لم يتعد فى كتابه (الجمل فى النحو العربى) عما جاء فى (الكتاب) أو (المنظومة) ، فالجزم يمكن أن يكون بالوقف مثل قولهم : رأيت (زيد) ، وركبت (فرس) حيث لا يلزمون الكلمة حركة ، لأن الإعراب حادث وأصل الكلام السكون . هكذا يقول فى الجمل ^(٢) ، والجزم يكون بالبنية مثل : مَن ، وما ، ولم وأشباهها لا يتغير إلى حركة ^(٣) .

غير أن مما لفت نظرى فى كتاب الجمل هذا النص الذى يقول فيه ^(٤) : « فاعلم أن علامات الجزم بالضم ، والوقف ، والفتحة ، وإسقاط النون والكسرة ، فالوقف مثل قولك : لم يخرج ، ولم يبرح وهو السكون ، والجزم بالضم : لم يدع ، ولم يغز ، والجزم بالكسر : لم يرم ، ولم يقض ، والجزم بالفتح : لم يلتق ، ولم يرض ، وإسقاط النون : لم يخرجوا ، ولم يخرجوا ، وربما تركت الواو والياء فى موضع الجزم استخفافاً . قال الله عز وجل ^(٥) :

(١) ١٩٦/٢ (بتصرف) .

(٢) ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٣) الجمل ٢٠٥ .

(٤) الجمل ٢٠٢ ، ٢٣ .

(٥) سورة الجن الآية ١٨ .

(وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً) أثبت الواو ومحله الجزم لأنه مخاطبة الواحد فيما ذكر لى بعض أهل المعرفة قال الشاعر ^(١) :

هجوت زبّانَ ثم جئت معتذراً .: من هجو زبّان لم تهجو ولم تدع

والملاحظ أن علامات الجزم لدى الخليل تعتمد على الشكل النطقى لآخر الفعل ، وكأنه كان يميل إلى أن يقدم لنا (نحواً وصفيّاً) يعتمد على وصف الواقع اللغوى ، وهو يمثل الآن اتجاهاً لبعض الدارسين .

ما لم يسم فاعله :

فى منظومة الخليل باب يسمّى : ما لم يسمّ فاعله يقول فيه ^(٢) :

والفاعلون ولم يسمّوا حدّهم .: رفعٌ ، وبعد الرفع نصب يلحب فتقول قد عَزَلَ الأميرُ وزُوجتُ .: دعدٌ وقد ضُرِبَ العشية شوزب

ومن الواضح أن الخليل يقصد نائب الفاعل مع الفعل المبني للمجهول وأمثله دالة على ذلك : (عَزَلَ الأمير - زُوجَت دعد - ضُرِبَ شوزب) ، وقريب من هذا ما أورده الخليل فى كتابه الجمل عندما كان يتكلم عن وجوه الرفع قائلاً ^(٣) : « وما لم يذكر فاعله : ضُرِبَ زيدٌ وكُسِيَ عمروٌ » ، وإذا ظهر لنا هذا الأمر واستبان فلنا أن نعترض على ما قاله صاحب المدارس النحوية ^(٤) عندما يقول تحت عنوان : ما لم يسمّ فاعله : « وهو من مصطلحات

(١) قائل هذا البيت أبو عمرو بن العلاء فقد قيل أن اسمه (زبّان) وأنه قال هذا البيت للفرزدق انظر الإنصاف ٢٤/١ شرح الأشموني ١٠٣/١ شرح المفصل ١٠٤/١٠ ، ١٠٥ شرح شواهد العيني ١٠٣/١ . والمعروف أن أبا عمرو بن العلاء كان أستاذ الخليل ، وربما كان هو المقصود بقول الخليل « فيما ذكر لى بعض أهل المعرفة » أليس ذلك دليلاً على أن هذه النصوص الواردة كلها للخليل .

(٢) البيتان ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) الجمل ١١٨ .

(٤) المدارس النحوية ١٢١ ، ١٢٢ .

الكوفيين ، وهو عند البصريين جملة مواد هى المفعول الذى لم يتعده فعله ، ولم يتعد إليه فعل فاعل والمفعول الذى لا يذكر فاعله والفعل الذى بنى للمفعول ولم يذكر من فعل به « (١) .

واللاحظ أن صاحب المدارس النحوية ينفى فى بداية الأمر أن يكون المصطلح بصرياً قائلاً : (وهو من مصطلحات الكوفيين) ، ثم يذكر أن البصريين قد استخدموه مشيراً إلى ثلاثة مصادر منها استخدام المبرد (المفعول الذى لا يذكر فاعله) واستخدام ابن السراج (الفعل الذى بنى للمفعول) والقصده هنا أن الفاعل محذوف سواء كان فاعل الفعل ، أو الفاعل فى المفعول ، والمصطلح الذى أتى به (ما لم يسم فاعله) يمكن أن يؤدى الداليتين السابقتين ، وهذا ما استخدمه الخليل (ما لم يذكر فاعله) مرة ، ومرة أخرى (ما لم يسم فاعله) والمبرد وابن السراج من أقطاب المدرسة البصرية أوفياء لمصطلحهم ، وسيبويه عندما يقول (المفعول الذى لم يتعده فعله) (٢) فإنما لم يبعد عن المعنى المراد ، ويبقى للخليل السبق فى استخدام المصطلح بناء على ما ورد فى (منظومته) وفى كتابه (الجمل) .

هذه جملة مصطلحات توقفنا أمامها بالتفصيل نظراً لما أشيع عنها أنها كوفية ، مع أن البصريين - وعلى رأسهم الخليل - كانوا سباقين فى استخدامها ، وهى ألفاظ شاعت ليس فقط عند الكوفيين ، بل ظلت شائعة حتى عصرنا الحاضر فالكثير منها يتردد كل يوم على ألسنة الدارسين ، هذا على العكس من تلك المصطلحات الكوفية التى اندثرت ولم تتجاوز ألسنة الكوفيين مثل : المكنى والكناية (الضمير) ، نون العماد (نون الوقاية) ، حروف المثل (أسماء الاشارة) ، الدائم (المضارع) ، الاستيتاء (الإغراء) ، المصدر (المفعول المطلق) ، التفسير (المفعول به) ، المترجم (التمييز) ، الإيجاب

(٢) أشار المؤلف إلى الكتاب ٢٤/١ والصحيح ٤٢/١ ، والمقتضب ٥١/٤ ، والأصول ٢٨٧/٢ .

(٣) الكتاب ٤٢/١ ، ٤٣ .

(الاستثناء المفرغ) ، الترجمة ، التبيين ، التكرير ، التفسير ، العبارة
(كلها تعنى البديل) ، التكرير (التوكيد) . كل هذه المصطلحات استخدمت
فقط على السنة الكوفيين ثم اندثرت ، فلم تعد تستخدم .

وإذا تتبعنا بقية المصطلحات الواردة فى منظومة الخليل فإننا سنجدتها الأكثر
شيوعاً واستخداماً حتى يومنا هذا ، وذلك دليل على الحس اللغوى لدى الخليل
- إن كان هو صاحبها - وإلا فلدى البصريين عامة ، وهما هى ذى بقية
المصطلحات الواردة فى المنظومة قيد الدراسة :

الفاعل (الفاعلون) ^(١) المعرفة (المعارف) ^(٢) النكرة - النكرات ^(٣) المبتدأ ^(٤)
الخبر (الأخبار) ^(٥) الاسم (الأسماء - الأسماءى) ^(٦) الفعل (الأفعال) ^(٧)
المذكر ^(٨) المؤنث ^(٩) التعجب ^(١٠) المدح (امتدحت) ^(١١) الذم (ذمت) ^(١٢) .
حروف الرفع ^(١٣) حروف كان وليس ^(١٤) حروف إن ^(١٥) الإعراب تعرب ^(١٦)

(١) البيتان ٤٥ ، ١٤٥ .

(٢) الأبيات ١٧٠ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٤٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ .

(٣) الأبيات ١٧٠ ، ٢٢٠ ، ٢٧٦ ، ٢٤٥ ، ٢٧١ .

(٤) البيت ١٣٠ .

(٥) البيتان ٧٤ ، ١٢٩ .

(٦) الأبيات ٤٥ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ١٠٣ ، ٢١٥ ، ٢٥٠ .

(٧) الأبيات ٧٠ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ .

(٨) البيت ٢٤٣ .

(٩) البيت ٢٤٣ .

(١٠) البيت ٩٩ .

(١١) البيت ٩٢ .

(١٢) البيت ٩٢ .

(١٣) البيت ٥١ .

(١٤) البيت ٦٢ .

(١٥) البيت ٧٢ .

(١٦) الأبيات ٤٣ ، ٢٠٣ ، ٢٧٣ .

الرفع (ترفع - ارفع)^(١) النصب - انصب - نصبت^(٢) الخفض (تخفض - اخفض)^(٣) الجزم^(٤) المجازاة (جازيت)^(٥) النداء (دعوت)^(٦) المفرد^(٧) الإضافة (أضفت)^(٨) الترخيم^(٩) الأمر (أمرت) النهى (نهيت)^(١٠) الإضمار (أضمرت)^(١١) الإغراء (أغريت)^(١٢) التحذير^(١٣) التمني^(١٤) الاستفهام مستفهماً^(١٥) التبرئة (التبرّى)^(١٦) ما يجرى وما لا يجرى^(١٧) الصرف (لم أصرفه)^(١٨) المنقوص^(١٩) التنوين (نوّنت)^(٢٠) الفروع^(٢١) الكنية

(١) الأبيات ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٢٩ ... الخ .

(٢) الأبيات ٣٠ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ٢١٩ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ ، ٢٤١ ، ٢٨٥ ... الخ .

(٣) الأبيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٨٦ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٧٠ ، ١٨٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٧٦ ، ٢٥٢ .

(٤) البيتان ١٠١ ، ١١٦ .

(٥) البيتان ١٩٤ ، ٢٣٦ .

(٦) عنوان الباب مع البيت ١٠٢ .

(٧) ويقصد به ما ليس مضافاً ولا شبيهاً بالمضاف البيت ١٠٢ ، ١١١ .

(٨) البيتان ١٠٦ ، ٢٧٠ .

(٩) البيتان ١١٣ ، ١١٥ .

(١٠) البيتان : ١٢٧ ، ٢٣٢ والعنوان .

(١١) ويقصد به استتار الضمير في مثل : أعطيت درهماً البيت ١٥٠ .

(١٢) البيت ١٦٦ بالإضافة إلى العنوان .

(١٣) البيت ١٦٨ .

(١٤) البيت ٢٣٢ .

(١٥) البيت ٢٣٢ .

(١٦) البيت ٢٥٧ والعنوان قبله .

(١٧) البيت ٢٦٢ والعنوان قبله ، البيت ٢٦٤ .

(١٨) بمعنى لم ينون البيت ٢٦٣ .

(٩) بمعنى غير المُنون (الذي انتقص منه التنوين) .

(٢٠) البيت ٢٩٠ .

(٢١) البيت ٢٩٠ .

(الكنى)^(١) المفعول^(٢) .

الاثنين^(٣) الجمع^(٤) الاستثناء (استثنيت)^(٥) تنسب^(٦) .

الخليل مصدر المصطلحات النحوية

ليس من المغالاة فى الأمر إذا ذهبنا إلى أن الخليل بن أحمد يعدّ مؤسس المدرسة البصرية التى شاع أمرها ، وانتشرت مصطلحاتها إلى يومنا هذا ، بل وكانت مسائلها وقضاياها النحوية وآراء أساتذتها هى الأكثر شيوعاً فى حقل الدراسات النحوية واللغوية ، وعندما نبحت عن مصادر الدراسة الكوفية بقضاياها النحوية ومصطلحاتها نجد أن الخليل بن أحمد كان مقصد كل من رغب من الكوفيين فى تعلّم النحو من منابعه . وها هو ذا الكسائى رئيس وزعيم مدرسة الكوفة يتعلم على يد الخليل بن أحمد . يقول الدكتور مهدي المخزومى^(٧) : « إذا أردنا أن نؤرخ لمدرسة الكوفة ، فينبغى أن نؤرخ للكسائى لأنه فيما نذهب إليه هو النحوى الأول الذى رسم للكوفيين رسوماً يعملون عليها ، كما قال أبو الفرج (يقصد الأصفهاني) ؛ ولأنه عالم أهل الكوفة وإمامهم كما قال السيوطى ، وإذا كان لابد من النص على المصدر الأول الذى استقى منه الكسائى علمه ، وفتح السبيل أمامه ليكون إماماً فى النحو ورئيساً لمدرسة ، فإننا نزعم أن الخليل بن أحمد هو ذلك المصدر الذى لقن الكسائى صناعة الإعراب ، وليس كثيراً على الخليل صاحب العقل المبتكر أن ينتمى إليه أعظم مدرستين للغة وقواعدها شهدها تاريخ العربية » ، ولهذا فقد جعل

(١) وهى ما بدئت بأب أو أم ، البيت ٤٦ .

(٢) البيت ٤٦ ، كذلك العنوان السابق للبيت رقم ١٦٣ من المنظومة .

(٣) يقصد المثنى ، البيتان ٢٩ ، ٣١ .

(٤) البيت ٣١ .

(٥) البيت ٢٠١ والعنوان قبله .

(٦) البيت ٢٢٢ .

(٧) مدرسة الكوفة ٧٩ .

الباحث الخليل بن أحمد مبعث مدرستين اصطنعت كل واحدة منهما منهجاً خاصاً ، تولّى رئاسة الأولى سيويوه وتولى رئاسة الثانية على بن حمزة الكسائي .

إذن فقد كان الخليل مؤسسَ النحو العربي بمدرسته ، وكان نبغاً فياضاً استقى منه القاصي والداني إلى حدّ أن المدرستين البصرية والكوفية انتميتا إليه ، فالكسائي وهو رأس المدرسة الكوفية يوافق الخليل في بعض آرائه مخالفاً الكوفيين و « كأن الكسائي وقد قرأ » الكتاب « قد تأثر به فذهب في مسائل عدة مذهب الخليل بن أحمد » ^(١) ومثال ذلك موافقة الكسائي للخليل في تركيب (لن) الناصبة للمضارع من (لا) و (أن) كما أشار إلى ذلك الأشموني ^(٢) والصبان ^(٣) ومن أمثلة ذلك أيضاً ما رواه الأشموني عندما قال إن نعم وبس فعلاّن غير متصرفين عند البصريين والكسائي بدليل فيها ونعمت واسمان عند الكوفيين ^(٤) . . . إلخ .

يحكى بعض المؤرخين ^(٥) أن الكسائي دخل على بعض أهل الفضل فتكلم فأخطأ فردّوا عليه خطأه ، فأخذ ينتقل بين حلقات الدرس حتى سمع عن أستاذ العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي فشدّ إليه الرحال ليأخذ عنه العربية « واستغرب الجالسون إلى الخليل أن يقصد الكسائي إلى البصرة يطلب لغات الأعراب فيها ، وفي الكوفة بنو تميم وبنو أسد ، وعندهم الفصاحة ، ولكنه جلس إلى الخليل مبهوراً بما سمع منه ، ولم يلتفت إلى هؤلاء بجواب ، ثم تقدم إلى الخليل يسأله عن مصادر علمه هذا فقال له الخليل بوادي الحجاز ونجد وتهامة . . . إلخ » .

(١) المدارس النحوية ٣٧ .

(٢) شرح الأشموني على الألفية ٢٧٨/٣ .

(٣) حاشية الصبان ٢٧٨/٣ .

(٤) شرح الأشموني ٢٦/٣ .

(٥) نزهة الألبا ٨٢ ، ٨٣ ، معجم الأدباء ١٦٨/١٣ .

هذا هو الكسائي إمام مدرسة الكوفة يتلمذ على يد الخليل بن أحمد ويتشرب علم الإعراب منه ومن بيئة البصرة ، ثم يأتي تلاميذ الكسائي ليأخذوا منه فيكون منبعهم بصرياً خليلياً ، وأبرز نحاة الكوفة الذي تتلمذ على يد الكسائي هو الفراء ، وإن كان قد تأثر مباشرة بكتاب سيبويه قبل أن يتلمذ على يد الكسائي ، فقد « عكف على كتاب سيبويه يقرؤه فيقف على مسائل الخليل فيه وهي كثيرة تبلغ عدة مئين » ^(١) ، وبالتالي فقد تأثر الفراء بآراء الخليل مباشرة من خلال قراءته لكتاب سيبويه الذي يحمل الكثير من آراء الخليل .

إذا كانت البصرة قد سبقت الكوفة إلى الدراسة اللغوية زمناً طويلاً ، وأنها شهدت نحواً اصطلاحياً قبل أن تشهد الكوفة وشهدت نحاةً كان لهم أثر كبير في النهوض بهذه الدراسة ^(٢) ، وإذا كان الخليل نبعاً ثرياً للمدرستين فلا شك أن للخليل دوره الكبير في وضع كثير من المصطلحات ، حفظها عنه عالم العربية الكبير سيبويه ونقلها إلى التاريخ العربي من خلال الكتاب ، صحيح أن المصطلحات النحوية لم تكن قد استقرت معناها وتحدد بشكل نهائي إلا أن الفضل يرجع لمن ذكرها لأول مرة ، وليس بين أيدينا مصدر يدل على أن وضع هذه المصطلحات النحوية غير المستقرة قبل الخليل . لهذا يكون الخليل مصدراً أول في وضع هذه المصطلحات من خلال ما نقله عنه تلميذه الوفي سيبويه في كتابه ، وما أثر عنه مكتوباً في منظومته وكذلك في كتابه « الجمل » بل هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك ، فهذا هو ذا باحث محدث ^(٣) يذكر تلاميذ الخليل جميعهم ثم يقول : « وهل نكون مغالين إذا قلنا : إن الخليل أنشأ مدارس بعدد هؤلاء التلاميذ ؟ كلا ، فهذا هو الحق لا مرية فيه ، لأن كل واحد منهم

(١) المدارس النحوية ٣٨ .

(٢) مدرسة الكوفة ٣٢٩ .

(٣) الأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود في كتابه الخليل بن أحمد ص ٣٧ ، ٣٨ .

كُونٌ بمجهوده الشخصي مدرسة قوية الدعائم ، ظاهرة الأثر ، لها خصائصها ومميزاتها ، وطابعها الذى مهّد لها الانتشار والذيع فيما بعد مما كان له أكبر الأثر فى المناظرات بين البصرة والكوفة ، ولا جرم أن هذه المدارس - وليدة مدرسة الخليل - سهرت على تنمية العلم النافع ، وإذاعة المعارف ، وإنارة العقول وتحريرها من ربة الجهالة ، ونير الذل ، ودياجير الظلمة ، فكانت عاملاً قوياً من عوامل الرقى والتقدم ، والنهوض فى الدولة الإسلامية إلى يومنا هذا » .

نعم إن كل من يقترب من شخصية الخليل وفكره وعلمه ليحس إحساساً قوياً بعظمة الرجل وتأثيره فى كل من حوله سلوكاً وعلماً بعقليته الناضجة الواعية الدقيقة الخلاقة المبدعة ، ورجل يمثل هذه العقلية ليس كثيراً عليه أن يكون مصدر علم النحو فى البصرة والكوفة ، وكذلك لا يعجزه وضع مصطلحات هذا العلم ، فإذا كان قد اكتشف علمى العروض والقافية دون سابق تمهيد ، ألا يكون قادراً على وضع مصطلحات لعلم النحو .

من أين للكوفيين وضع مصطلحات تؤصل عل النحو ، مع أنهم لم يعرفوا النحو إلا بعد أن راج وانتشر فى البصرة « أجل فلم تعرف الكوفة قبل عصر الخليل نحواً ولا صرفاً ، ولم يكن بها أحداً من النحاة ، وظلت البصرة مستأثرة بالعلماء دون غيرها ، ليس فى النحو فحسب ، وإنما فى كل فن ، إلى أن انتقل منها إلى الكوفة عبد الرحمن التميمي المتوفى سنة ١٦٤ هـ وسكن الكوفة ، ونشر فيها علم النحو ، وبذر بذوره » (١) .

فى نهاية الأمر لا نستطيع إلا أن نعتف بأهمية مصطلحات الخليل الذى وضعها هو وأخذها عنه تلاميذه ، فقد استفاد الخليل من علم من سبقوه دون أن يتركوا شيئاً مكتوباً ، أو ربما تركوا وضاع . فلم ندر عن المصطلج قبل الخليل شيئاً . ولهذا يبقى للخليل أسبقية استخدام المصطلحات ووضعها على الصورة التى عرضناها .

(١) الخليل بن أحمد ، عبد الحفيظ أبو السعود ص ٢٨ .

obeikandi.com

رابعاً: الأعلام الواردة بين التمثيل والحقيقة

إن المتأمل لقصيدة الخليل النحوية يلاحظ كثرة الأعلام الواردة بها ، هذه الأعلام تربو عن مائة وثلاثين علماً ، وهذا ليس بمستغرب ، فمادام الأمر في نطاق النحو والتمثيل للقضايا النحوية المختلفة ، فإن الحاجة تكون ملحة في استخدام الأعلام التي لا يكون القصد من وجودها سوى التمثيل فقط ، دون أن يمثل العلم شيئاً من الدلالات الأخرى ؛ أى أنه لا يوجد ربط بين الحدث الحاصل من العلم والواقع كائناً أو يكون ، إلا إذا قصد طرح وجهة نظر أو اعتراض أو رأى ما لواحد من النحاة أو الصرفيين ، فإن الأمر يكون مختلفاً في هذه الحالة ، إذ ليس الأمر في نطاق التمثيل بل تغير إلى مرحلة أخرى ، يكون المقصود علماً بعينه وشخصاً بعينه ، قال شيئاً أو نقل رأياً ما . والمتتبع لأعلام الخليل يستطيع ملاحظة ما يلي :

أولاً: وجود أعلام حديثة - أو هكذا تبدو - مثل عبد السلام أو أعلام غريبة ليس هناك تعود على التمثيل بها مثل : عبد المهيمن مهلب ، جندب ، حوشب . . . إلخ .

لكن الذى كان مثيراً بالنسبة لى هو العلم (عبد السلام) بشكل خاص ، فالقارئ - منذ وقوع عينه على (عبد السلام) - يوشك أن يقول إن هذه القصيدة ليست للخليل لأن العلم (عبد السلام) ليس قديماً إلى هذه الدرجة ، هكذا كان إحساسى فى بادئ الأمر ، أما الأعلام الأخرى التى تشير نوعاً من الدهشة للتمثيل بها مثل : حوشب ، عبد المهيمن . . إلخ . فهى قديمة ، وقدمها ربما كان دليلاً على كتابة هذه القصيدة فى حياة الخليل ، بل وربما قبل

ذلك . وكان لابد من العودة إلى كتب التراجم والتاريخ حتى نرى هل وجد مَنْ سُمِّيَ بعبد السلام في عصر الخليل أو قبله ؟ فإذا وُجد من سُمِّيَ بهذا الاسم في حياة الخليل أو قبله زال الشك من تلك الزاوية وإلا فإن الشك في نسبة هذه القصيدة ربما كان سيَجبرنا على التوقف عن تحقيقها وعدم التأكد من نسبتها إلى الخليل .

وتوجهت إلى كتاب « الأعلام » كنموذج من كتب التراجم والسير فوجدت الزركلي^(١) يترجم لعلم يسمَّى : عبد السلام بن حرب النهدي الملائي أبو بكر البصري ثم الكوفي من حفاظ الحديث ولد عام ٩١ هـ ومات عام ١٨٧ هـ ، والملاحظ أن عبد السلام بن حرب النهدي ولد قبل ولادة الخليل بتسع سنوات وعاش معظم حياته في البصرة وتوفي بعد الخليل بأثنتي عشرة سنة وربما كان صديقا للخليل ، فهو معاصر له ، وكان يعيش بمدينة البصرة نفسها .

وهناك علم آخر أشار إليه الزركلي^(٢) وهو : عبد السلام بن هاشل الشكري ، خرج في الجزيرة أيام المهدي ، واشتدت شوكته وكثر أتباعه ، وقاتله عدد من قوَّاد المهدي فهزَّمهم ، مات سنة ١٦٢ هـ جريّة ٧٧٩ م ، والملاحظ أنه ولد ومات قبل موت الخليل - حسب الرأي القائل بأن وفاة الخليل كانت عام ١٧٥ هـ - بالإضافة إلى خروجه واشتداد شوكته ومحاربة المهدي له ، كل هذا يجعله علماً بارزاً في تلك الفترة ، ولا أظن إلا أن الخليل كان قد سمع به كما سمع به أهل البصرة جميعهم .

وهناك عبد السلام بن سعد بن حبيب التنوخي الملقب بسحنون^(٣) الذي كانت ولادته قبل موت الخليل بخمسة عشر عاماً (عام ١٦٠ هـ) إذن لم يكن هذا العلم غريباً على أسماع الناس في تلك الفترة ، أو سُمِّيَ به بعد هذا

(١) الأعلام، الزركلي ٣/ ٣٥٥ .

(٢) الأعلام ٤/ ١٠ .

(٣) الأعلام ٤/ ٥ .

التاريخ ، وما مضى دليل على أن هذا العلم متداول قبل مجيء الخليل إلى البصرة ، بل قبل ولادته ، وليس معنى استخدام الخليل لهذا العلم أنه يقصد واحداً من هؤلاء ، وإنما استخدمه على سبيل التمثيل فقط غير أن الاحساس بحداثة هذا العلم هو الذى جعلنا نتوقف أمامه هذا التوقف اليسير ، حتى نفى حدائته أو الظن بأن استخدام هذا العلم وشهرته بدأ مع العصر المملوكى بالزاهد العالم : العز بن عبد السلام رحمه الله .

بل إن الناظر فى الأعلام السابقة التى أشرنا إلى غرابة التمثيل بها مثل عبد المهيمن ، حوشب . . . إلخ . يجد هذه الأسماء وأشباهاها قريبة من تراث الخليل الذى نسب إليه أو الذى حكى عنه ، وسأكتفى بالتعليق على ثلاثة من هذه الأعلام الواردة فى قصيدة الخليل .

ففى إحدى المخطوطات ورد على لسان العالم الشيخ أبو الحسن سليمان أبو عبد الله البحرانى أثناء ترجمته للخليل ، ومن ضمن ما قاله : « ومن محاسن شعر الخليل قوله فى الرد على المنجمين :

أبلغا غير المنجم أنى .: كافر بالذى قضته الكواكب
عالمًا إنما يكون وما كا .: ن قضاء من المهيمن واجب

ولو أن هذه الآيات صحيحة النسبة إلى الخليل - وأعتقد أنها صحيحة - لدلت على أن كلمة « المهيمن » - وهو اسم من أسماء الله - ليس بعيداً عن ذهن الخليل ، وبالتالي يأتى العلم « عبد المهيمن » فى نطاق هذا السياق مثل : (الله) و (عبد الله) و (السلام) و (عبد السلام) . . . إلخ . ولدل ذلك أيضاً على أن كثيراً مما ينسب إلى الخليل يكون فى نسق واحد من استخدام

(١) هذا المخطوط عبارة عن رسالة بعنوان واضح علم النحو للشيخ (أبو الحسن سليمان أبو عبد الله البحرانى) ، وهو مخطوط محفوظ بمكتبة معالى السيد محمد أحمد البوسعيدى الخاصة تحت رقم { ١٦٦ ر } ص ٣٨٦ .

لألفاظ والمصطلحات أو حتى الأفكار ، فرجل مثل الخليل تقى ورع مؤمن زاهد لا يؤمن بأقوال المنجمين ، وهذا متفق مع طبيعة ما روى عن حياة الخليل .

أما حوشب الذى ورد ذكره أكثر من مرة فى قصيدة الخليل^(١) النحوية ، فليس المقصود منه إلا التمثيل ، وإن كانت كتب التراجم تشير إلى أن الخليل درس الحديث وفقه اللغة على أيوب السختياني وعاصم الأحوال والعوام بن حوشب^(٢) كما روى الحديث عن عثمان بن حاضر عن ابن عباس وغالب القطان^(٣) ، كذلك وجدت أعلام كثيرة فى عصر الخليل وقبله ممن يحملون اسم حوشب ، ومن هؤلاء « حوشب بن طخمة » الألهاني الحميرى الذى توفى عام ٣٧ هجرية يقول عنه صاحب الأعلام^(٤) « تابعى يمانى ، كان رئيس بنى ألهان فى الجاهلية والإسلام ، أدرك النبى ﷺ وآمن به ، ولم يره ، وقدم إلى الحجاز فى أيام أبى بكر ، وكان أميراً على كردوس فى وقعة اليرموك ، وسكن الشام فكان من أعيان أهلها وفرسانهم وشهد صفين مع معاوية فقتل فيها » .

إذن لم يكن التمثيل بهذا العلم من الغرابة فى شىء ، فحوشب هذا من أعيان الشام ، والعوام بن حوشب من رواة الحديث بل إنه ممن روى عنهم الخليل ، وبهذا كان الاسم قريباً من فكره إن لم يكن قريباً من قلبه أيضاً وهو المتوقع مع العوام بن حوشب .

أما « مهلب » الوارد ثلاث مرات^(٥) فى قصيدة الخليل فيبدو هذا العلم

(١) البيتان رقم ٣٠ ، ٢٢٤ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٤٣٦/٨ ، مكانة الخليل بن أحمد فى النحو العربى ص ٢٦ .

(٣) مكانة الخليل بن أحمد فى النحو العربى ص ٢٦ .

(٤) الأعلام ٢٨٨/٢ .

(٥) انظر البيتين ١٠٨ ، ٢١٥ من قصيدة الخليل .

مرتبطا بتراث الخليل ارتباطا وثيقا . مع المهلب بن أبى صفرة وابنه سليمان والى الأهواز الذى قال عنه الخليل أبياته المعروفة التى أجمعت كل الكتب على نسبتها إليه^(١) والتى كانت ردا على قطع راتبه المخصص له ، يقول :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة . وفى غنى غير أنى لست ذا مال

إذن فإن الأمر متعلق براتبه الذى قطعه ، والأمر إذن متعلق بحياة الخليل ، ومع ذلك يرفض الانتهازية - حسب دلالة الرواية المشهورة - وإذا أمعنا النظر فى مثال الخليل نجد متعلقا أيضا بشيء قريب من هذا يقول الخليل^(٢) :

ومعارف الأسماء أسماء الورى . زيد وعمرو ذو الندى ومهلب

هل ارتبطت كلمة مهلب بالندى فى شطر واحد ارتباطا عشوائيا ؟ ربما وهو الأكثر ترجيحا بالنسبة لى ، مع أن الندى والكرم له علاقة براتب الخليل .

وربما كان فى المثال الآخر للخليل ما يشير شبهة للربط بين المثال والواقع حيث يخاطب المهلب فى قوله^(٣) :

فإذا كنيت نصبت من كنيته . يابا المهلب قد أتاك مهلب

يمكن أن يكون المقصود بذلك الخطاب الواقعى ؟ لا أظن ذلك إذ لو كان الأمر على سبيل الحقيقة لقال يا ابن المهلب ولم تشر نسخة واحدة من مخطوطات القصيدة العشر إلى وجود هذه القراءة ، ولعل ذلك يؤكد عدم الربط بين الأعلام الواردة والواقع ، حتى لو كانت تلك الأعلام لها دور فى حياة الخليل فالوارد للتمثيل فقط .

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، معجم الأدباء لياقوت ٧٦/ ١١ إتخاف الأعيان ١/ ٦١ وانظر

القصة كاملة فى المراجع السابقة .

(٢) البيت ٢١٥ من المنظومة .

(٣) البيت ١٠٨ من المنظومة .

ثانياً : ذكر الخليل (قطرباً)^(١) لا على سبيل التمثيل ، بل إنه تجاوز ذلك فذكر رأياً له ، ففي باب « التاء الأصلية وغير الأصلية » أى ما آخره ألف وتاء دالا على الجمع يشير الخليل إلى أنه إذا كانت التاء زائدة فإنها تنصب بالخفض (بالكسرة) وهو المعروف لدينا بجمع المؤنث مثل : عمات جمع عمّة ، أما إذا كانت التاء زائدة ، فإن نصبها يكون بالفتحة ، وقد عبّر الخليل عن الأولى بقوله : فخفض نصبها فى قوله^(٢) :

والتاء إن زادت فخفض نصبها .: ما عن طريق الخفض عنها مهرب فتقول إن بنات عمك خرد .: بيض الوجوه كأنهن الربرب
أما الثانية - وهى التاء الزائدة - فقد عبّر عنها بالنصب فقط مشيراً إلى أن « قطرباً » - كذلك - ينصبها . يقول الخليل^(٣) :

ودخلت أبيات الكرام فأكرموا .: زورى وبشوا فى الحديث وقربوا وسمعت أصواتا فجئت مبادراً .: والقوم قد شهروا السيوف وأجلبوا فنصبت لما أن أتت أصلية .: وكذاك ينصبها أخونا قطرب

ويمكن أن يكون الأمر لا إشكال فيه لو أنه ذكر « قطرباً » فى تمثيل لقاعدة ما ، أما وأن الأمر هو نسبة رأى إليه فإن الإشكال يقع من هذه الزاوية ، وهنا تثور فى الذهن أسئلة كثيرة ، إذ كيف يذكر الخليل (قطرباً) وهو - أى قطرب - لم يتلمذ على يديه ؟ بل إنه تتلمذ على يد أحد تلاميذ الخليل وهو سيبويه ، ألا يمكن أن يكون ذكر الخليل لقطرب مدعاة لأن نشك فى نسبة هذه القصيدة للخليل وأنها منحولة عليه ؟ فلم تذكر كتب التراجم والسير والتاريخ

(١) قال الخليل فى العين ٢٥٧/٥ القطرب هو الذكر من السعالى ، وفى القاموس المحيط ١٢٣/١ هو

دوية لا تستريح نهارها سعياً ، ولقب به محمد بن المستنير ، وستأنى ترجمته بعد قليل .

(٢) البيتان ٨٦ ، ٨٧ من قصيدة الخليل .

(٣) الأبيات من ٨٩ - ٩١ .

آية علاقة بين الخليل وقطرب ، إضافة إلى ذلك أن الخليل مات قبل موت قطرب بإحدى وثلاثين سنة . هذا على شهرة تلك الرواية التي تذكر أن وفاة الخليل كانت عام ١٧٥هـ^(١) ، ووفاة قطرب كانت عام ٢٠٦هـ^(٢) ، فكيف يذكر الخليل « قطرباً » - مع وجود هذا الفارق الزمني بينهما - ويظل يقين نسبة القصيدة إلى الخليل قائما ، وهذا موطن التشكك الذي يهدم فكرة أن تكون هذه القصيدة من عمل الخليل .

ساورتني شكوك كثيرة ، وأنا في بادئ أمر تحقيق نسبة هذه القصيدة عندما كنت أعيد قراءة هذا البيت وأسترجع تواريخ الوفاة بشكل خاص لكل من الخليل وقطرب وتلاميذ الخليل ، لكنه تأمل هذه التواريخ جيدا والاطلاع على طبيعة الحياة في البصرة في ذلك الوقت ، بالإضافة إلى عوامل أخرى ، منها أمور نصيئة ، كل هذا هو الذي فك طلاسم المشكلة وأضاء الطريق ، بل وأضاف إلى كثير من الراحة لتحقيق نسبة هذه القصيدة إلى الخليل ، ولتتبع مراحل هذا التحقيق فيما يلي :

يشير صاحب كتاب الأعلام إلى أن وفاة قطرب كانت سنة ٢٠٦هـ - ٨٢١م^(٣) على الرأي الأشهر ، وكتب التراجم لم تشر إلى أنه تتلمذ على يد الخليل بن أحمد ، لكنها تشير إلى أنه تتلمذ على يد سيبويه^(٤) ، وسيبويه تتلمذ

(١) وفيات الأعيان ٢/٢٤٨ ، إتحاف الأعيان ١/٦٧ أعلام العرب ٦٩ .

(٢) الأعلام ٧/٩٥ ، وفيات الأعيان ٤/٣١٢ .

(٣) الزركلي ٧/٩٥ وقطرب هو محمد بن المستنير بن أحمد أبو علي الشهير بقطرب ، نحوى عالم بالأدب واللغة من أهل البصرة من الموالى كان يرى رأى المعتزلة النظامية ، وهو أول من وضع المثلث في اللغة ، وفي وفيات الأعيان ٤/٣١٢ أخذ الأدب عن سيبويه وعن جماعة من العلماء البصريين ، وكان حريصا على الاشتغال والتعلم وكان يبكر إلى سيبويه قبل حضور أحد من التلاميذ ، فقال له ما أنت إلا قطرب ليل فبقى عليه هذا اللقب ، قطرب : اسم دويبة لاتزال تدب ولا تفتقر ، توفي سنة ٢٠٦هـ .

(٤) وفيات الأعيان ٤/٣١٢ .

على يد الخليل ، والخليل توفى عام ١٧٥هـ - كما أوردنا سلفاً - وإذا كان الأمر كذلك فلا لقاء متخيلاً بين الخليل وقطرب ، بل ليس هناك علاقة علمية مباشرة متخيلة أو مجسدة . والحقيقة أن المتأمل في حياة تلاميذ الخليل يمكن أن يستنبط أشياء مهمة تغير مجرى التخيل أو التصور الذى يطرأ على ذهن من أول وهلة .

إن كتب التراجم تشير إلى أن النضر بن شميل بن مالك بن عمرو التميمي النحوى البصرى الثقة كان من تلاميذ الخليل^(١) ، بل إن بعض الكتب تشير إلى أنه كان من أصحاب الخليل^(٢) أما عن وفاته فيقول ابن خلكان^(٣) عنه « وتوفى فى سلع ذى الحجة سنة أربع ومائتين ، وقيل فى أولها ، وقيل سنة ثلاث ومائتين بمدينة مرو من بلاد خراسان » والنظر القريب والمقارنة يؤكدان ذلك التقارب الشديد بين وفاة قطرب (٢٠٦هـ) ووفاة النضر بن شميل (٢٠٤هـ) أى ليس بينها سوى عامين فقط . لم تذكر كتب التراجم عن الأول أنه تتلمذ أو قابل الخليل ، والثانى ذكر عنه أنه تتلمذ على يد الخليل وكان صديقاً له والسؤال الذى يواجها بشدة هو : هل يمكن أن يكون العامان فرقاً زمنياً كبيراً إلى هذا الحد الذى يجعل النضر بن شميل تلميذاً للخليل وصديقاً له ويجعل قطرباً بعيداً عن الخليل ، فلا صداقة ولا ذكر ولا معرفة إطلاقاً ؟ أعتقد أن العامين ليس لهما هذا التأثير الكبير ، وإنما لابد من وجود شيء ما جعل المؤرخين يقفون من قطرب موقفاً سلبياً بصمتهم عن تلك العلاقة بين الخليل وقطرب ، وربما كان فى قول ابن الأثير ما يدل على صحة استنتاجنا ، يقول ابن الأثير^(٤) عن قطرب : « وكان يذهب إلى مذهب المعتزلة ، ولما صنف كتابه فى التفسير أراد أن يقرأه فى الجامع فخاف من العامة وإنكارهم عليه ؛ لأنه

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٥٩ ، ٦٠ الطبعة الثانية دار المعارف القاهرة ١٤٣٢هـ - ١٩٧٣م تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وانظر نزهة الألبا ص ٧٤ .

(٢) وفيات الأعيان ٣٧٩/٥ .

(٣) وفيات الأعيان ٤٠٤/٥ .

(٤) نزهة الألبا ص ٧٧ .

ذكر فيه مذهب المعتزلة. فاستعان بجماعة من أصحاب السلطان ليتمكن من قراءته بالجامع. توفى سنة ٢٠٦ هـ فى خلافة المأمون» هل يمكن أن يكون اعتقاده بمذهب المعتزلة وفرضه قراءة كتابه بالجامع مستعينا بقوة السلطة سببا فى صمت المؤرخين عنه . ربما فى هذا بعض الصحة

وإذا كان النضر بن شميل قد توفى سنة ٢٠٤ هـ جرية وكان من تلاميذ الخليل وأصحابه فإن الأمر يكون أكثر إثارة وغرابة عندما نعلم أن الأصمعى تلميذ الخليل وصديقه أيضا قد توفى سنة ٢١٣ هـ أو ٢١٧ هـ ؛ أى بعد وفاة قطرب بسبع سنوات أو بإحدى عشرة سنة ، ومع ذلك كان من المقربين إلى الخليل ، يقول ابن الأنبارى^(١) عن وفاة الأصمعى : « قال أبو العباس توفى الأصمعى بالبصرة وأنا حاضر سنة ثلاث عشر ومائتين ، ويقال توفى سنة سبع عشر ومائتين فى خلافة المأمون » وقيل إنه توفى سنة ٢١٠ هـ^(٢) .

فقطرب المتوفى سنة ٢٠٦ هـ جرية لم يتلمذ على يد الخليل مع دأبه وشغفه بالعلم عامة وبعلوم القرآن خاصة ، والأصمعى المتوفى سنة ٢١٧ هـ أو حتى ٢١٠ هـ على أقصى الآراء كان صديقا للخليل وتلميذا مقربا إليه . أليس فى ذلك ما يشير إلى الريبة ؟ أعتقد أن هناك إغفالا متعمدا وصمتا هادفا عن الخوض فى حياة قطرب ، وخاصة إذا تأملنا مايلى :

(أ) امتلأت كتب التراجم والتاريخ عن سيوبه وأنه قد تتلمذ على يد الخليل وأنه كان أنجب تلاميذه على الإطلاق وعلى ما تذكره كتب التراجم توفى سيوبه عام ١٦١ هـ أو ١٧٧ هـ^(٣) وقيل غير ذلك . . . الخ . أى كانت وفاته قبل الخليل (وهو مستبعد) أو بعد الخليل بزمان يسير (وهو الأقرب إلى المنطق) وذكرت الكتب أيضا أن قطربا كان يكر إلى سيوبه قبل

(١) نزهة الألبا ص ١٠٠ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ص ١٧٤ .

(٣) وفيات الأعيان ٤٦٤ / ٣ .

حضور أحد من التلاميذ^(١) واستمرار قطرب في التبكير إلى سيويه يحتاج إلى زمن ليس بالقليل حتى يشعر به سيويه ويطلق عليه هذا اللقب ، وهذا يدل أيضا على حرص قطرب ، إذا أضفنا إلى ذلك وجود قطرب في بصرة الخليل حيث كان الخليل ملء العين والسمع فلنا أن نتخيل سعى قطرب للأخذ من علم الخليل وأن الخليل كان عالماً به عارفاً بإياه ، وأن ذكر الخليل لقطرب ليس مستغرباً .

(ب) والخليل نفسه ذكر سيويه في نص من نصوصه التي نسبت إليه محققة ، فقد ورد في كتاب الجمل في النحو تصنيف الخليل بن أحمد الفراهيدي^(٢) في باب جُمَلَ الواوات عندما كان الخليل يتكلم عن واو الإقحام وذكر قول الله تعالى^(٣) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصِدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وأن معناه : يصدون ، والواو فيه واو إقحام قال الخليل : « ومثله قول الله عز وجلّ : (فلما أسلّمَا ، وتلّه للجبين وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا) معناه : ناديناه والواو حشو على ما ذكر سيويه النحوى » هكذا ذكر الخليل تلميذه سيويه^(٤) ونسب رأياً له ولا ضير في أن يذكر الأستاذ تلميذه ، ولهذا فذكر الخليل لقطرب لا يدعو إلى الدهشة إذا تأكد لنا حرص قطرب على العلم والتبكير إليه وشغفه به ، فليس من المعقول أن يعيش بالبصرة في تلك الفترة ولا يقابل الخليل أو لا يأخذ منه شفاهة

(١) وفيات الأعيان ٣١٢/٤ .

(٢) هذا الكتاب حققه الدكتور فخر الدين قباوة وقدم الطبعة الثانية منه ١٤٠٧ هـ . ١٩٨٧ م مؤسسة الرسالة بيروت انظر ص ٢٨٨ وقد قرأت جزءاً من هذا الكتاب مخطوطاً أثناء زيارتي للمكتبة السليمانية باستانبول في تركيا ، ولكنه كان بعنوان « جملة الآلات الإعرابية في النحو » وهذا المخطوط قدّمه الدكتور فخر الدين قباوة على أنه جزء من كتاب الجمل .

(٣) سورة الحج الآية ٢٥ .

(٤) سورة الصافات الآيات من ١٠٣ - ١٠٥ وانظر الجمل للخليل ص ٢٨٨ .

(٥) وانظر رأى سيويه في الكتاب ١٦٣/٣ وقد علق سيويه على الآية : وناديناه أن ... قائلا : كأنه قال جلّ وعزّ : ناديناه أنك قد صدقت الرؤيا يا إبراهيم .

ولهذا نجد ابن خلكان يقول عن قطرب إنه « أخذ الأدب عن سيبويه وعن جماعة من العلماء البصريين »^(١) ترى من هم هؤلاء العلماء ؟ لا ندرى !!! وأيضا لا ندرى لم سر هذا التجاهل لتلك العلاقة العلمية المنطقية ، وإذا كان أبو محمد اليزيدى بن المغيرة العدوى قد توفى متزامنا مع قطرب كما يذكر ابن خلكان سنة ٢٠٢ هـ^(٢) ولكنه « أخذ عن الخليل من اللغة أمراً عظيماً وكتب عنه العروض في ابتداء وضعه له »^(٣) ، أقول إذا كان « اليزيدى » تتلمذ على يد الخليل وأخذ عنه من اللغة أمراً عظيماً ، بل عاش معه فترة اكتشافه لعلم العروض ، وكانت وفاته متزامنة مع قطرب . أفلا يكون الأمر مثيراً إن تجاهلت كتب التراجم شأن تلك العلاقة المفترضة بين الخليل وقطرب .

(ج) من الملاحظ أن قطرباً قد اهتم ببعض الموضوعات التي اهتم بها الخليل ، فتذكر كتب التراجم^(٤) أن له كتاب القوافي وكتاب العلل في النحو ، والخليل كان من أوائل النحاة الذين اهتموا باللغة إن لم يكن أولهم على الإطلاق . يقول أبو القاسم الزجاجي^(٥) : « وذكر بعض شيوخنا أن الخليل بن أحمد رحمه الله ، سئل عن العلل التي يعتلّ بها في النحو ، فقبل له : عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : إن العرب نطقت على سجيته وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام في عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها ، واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمس ، وإن تكن هناك علة له فمثلى في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبه النظم والأقسام

(١) وفیات الاعيان ٣١٢/٤ .

(٢) السابق ١٨٩/٧ .

(٣) السابق ١٨٤/٧ .

(٤) الأعلام ٩٥/٧ وفیات الاعيان ٣١٢/٤ .

(٥) الإيضاح في علل النحو تحقيق الدكتور مازن المبارك انظر ص ٦٥ .

وقد صحت عنده حكمة بانيها » وعلق الزجاجي فى نهاية نص الخليل قائلاً : « وهذا كلام مستقيم وإنصاف من الخليل رحمة الله عليه » .

وإذا كان - على ما يبدو ومن الخبر السابق - أن الخليل أول من تحدث عن العلة ، وقطرب أول من ألف عنها كتاباً مستقلاً . ألا يمكن أن يكون هذا تأثيراً مباشراً من أستاذه الخليل ؟ ومثل هذا أيضاً يقال عن علم القوافي الذى كان الخليل أول من تحدث عنه ، وكان قطرب من أوائل - إن لم يكن أول - من ألف كتاباً عنه . ألا يكون الأمر منطقياً عندما نقول إنه تأثير من الخليل مباشر على قطرب ؟ .

ونضيف إلى ما سبق أن كثرة مؤلفات قطرب إلى حد لافت للنظر يمكن أن تؤدي إلى التأكيد على وجود سرٍّ ما فى تجاهل كتب التراجم لعرض حياة قطرب تفصيلاً ، فقطرب « له من التصانيف كتاب معانى القرآن وكتاب الاشتقاق وكتاب القوافي وكتاب النوادر وكتاب الأزمئة وكتاب الفرق وكتاب الأصوات وكتاب الصفات وكتاب العلل فى النحو وكتاب الأضداد وكتاب خلق الفرس ، وكتاب خلق الإنسان وكتاب غريب الحديث وكتاب الهمز ، وفعل وأفعل والرد على الملحدين فى تشابه القرآن وغير ذلك »^(١) .

ولعل فيما مضى أدلة على عدم الغرابة فى أن يذكر الخليل قطرباً وينسب رأياً ما له ، مما يؤدي - فى نهاية الأمر - إلى القول بأن ذكر قطرب فى المنظومة النحوية للخليل لا يمثل مشكلة ما فى نسبتها إليه أو التشكك فى تلك النسبة .

ثالثاً : وملاحظة أخرى بالنسبة للأعلام الواردة فى المنظومة النحوية للخليل وهى أن العلمين (زيداً وعمراً) أخذاً نصيب الأسد بين الأعلام . فقد تكرر (زيد) سبع عشرة مرة و (عمرو) ثلاث عشرة مرة ، بل إن الخليل ذكر

(١) الأعلام ٩٥/٧ ، وفيات الأعيان ٣١٢/٤ .

(زيداً) مرتين فى البيت الواحد^(١) ، بل والغريب أن (زيداً) هو أول علم ورد عندما احتاج الخليل للتمثيل^(٢) وأيضاً جاء هو نفسه آخر علم وارد فى المنظومة للتمثيل^(٣) ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد تكرر فى آخر بيت للتمثيل .

ومن اللافت للنظر أن النحويين المتأخرين عن الخليل قد أكثروا من التمثيل بالعلمين (زيد وعمرو) حتى صار (زيد وعمرو) مضرب المثل عند غير المتخصصين من المثقفين أو أنصاف المثقفين ، أو حتى عند عوام الناس ، ترى هل كان كل ذلك بتأثير من استخدام الخليل لهذين العلمين باعتبار أن هذه المنظومة النحوية هى أول منظومة فى النحو العربى ؟ أو أن ذلك جاء عن طريق المصادفة ، فالتأمل لكتاب سيبويه يجد أنه أكثر من التمثيل بزيد وعمرو أيضاً ، وسيبويه كان التلميذ النابه للخليل . هل يمكن أن يكون ذلك دليلاً على العلاقة الوثيقة بين الخليل وسيبويه ؟ وأن ذلك تأثير مباشر من الخليل على سيبويه حتى فى طريقه التمثيل !! وخاصة أننا نعلم مدى إفادة سيبويه من أستاذه الخليل . ربما كانت الإجابة بنعم ، ويعد ذلك دليلاً آخر على صحة نسبة هذه المنظومة النحوية إلى الخليل .

أما بقية الأعلام التى مثل بها الخليل فلم نتوقف أمامها؛ فهى أعلام كثيرة، منها ما هو شائع ومنها ما هو غير شائع ، وذلك كله فى حيز التمثيل . فكلمة (أحمد) وهو اسم والد الخليل لم ترد إلا مرتين^(٤) و (عبد الله) تسع مرات و (محمد) خمس مرات . وهذه من الأعلام التى كانت بدأت تشيع فى تلك الفترة ، أما (شوزب والنضير ومعمّر وقعنّب وجندب والزبرقان وأشعب

(١) البيت رقم ٢٨٩ .

(٢) البيت رقم ٢٨ .

(٣) البيت رقم ٢٨٩ .

(٤) البيت ١٠٠ ، البيت ٢٧٥ .

وعمران إلخ) فهي من الأسماء غير الشائعة اليوم ، وربما كانت شائعة في زمانها وبيئتها مما أدى إلى استخدام الخليل لها . وكل ذلك لا يؤدي إلى شيء يستحق التوقف أمامه .

بيان بالأعلام الواردة في منظومة الخليل^(٢)

رقم البيت	الوارد من الأعلام
٢٨	زيد - عمرو
٣٠	حوشب
٣٤	عامر - سعيد - عمرو
٣٦	عبد الله - محمد
٣٧	الوليد
٣٩	عامر - خالد - سالم
٤٠	عبد الله - عمرو
٤٣	عبد الله
٤٧	عمرو
٤٨	عبد الله - خالد - أبو المغيرة
٤٩	زيد
٥٠	محمد
٥٢	عمرو
٥٣	خالد
٥٥	مصعب
٥٧	عمرو
٥٩	زيد

(٢) هذه الأعلام وردت على سبيل التمثيل فيما عدا (قطرب) ، وهو العلم الوحيد الذي جاء لإسناد رأى له كما أوضحنا سابقاً .

رقم البيت	الوارد من الأعلام
٦١	عبد المهيمن - معمر
٦٤	زيد
٦٥	عمرو
٧٤	معتب
٧٥	عمرو
٧٧	زيد - عمرو
٧٩	معتب
٨٠	محمد
٩١	قطرب
٩٨	زيد
١٠٠	أحمد
١٠٤	زيد - داود - مالك - يزيد - زينب
١٠٥	بكر - عمار - عمرو - وهب - حماد
١٠٦	جندب
١٠٨	المهلب
١١٠	زيد - الضحّاك
١١٣	حارث ورخمت (حار)
١١٥	زينب
١١٧	زيد
١١٨	مقنب
١٢٢	زيد - تغلب
١٢٣	نصير - مرحب
١٣١	محمد - يزيد
١٣٢	عبد الله - محمد
١٣٤	عبد الله

رقم البيت	الوارد من الأعلام
١٤٢	محمد
١٤٤	جابر
١٤٦	دعد - شوزب
١٤٨	نصير - زيد
١٥١	النُّصير
١٥٣	ابن مساور
١٥٩	هشام - عوف - حسين
١٦٠	زيد
١٦١	عمّار - بكر - عبد السلام
١٦٢	معبد - زرارة - الزبرقان
١٦٦	عامر - زيد
١٧١	الوليد
١٧٣	عمرو
١٧٤	عبد الله
١٨١	عبد الله
١٨٢	زيد - المغيرة
١٩١	زيد
١٩٦	عبد الله
٢٠٥	محمد - الوليد
٢١١	أشعب
٢١٣	مروان
٢١٥	زيد - عمرو - مهلب
٢٢٤	حوشب
٢٢٧	عمرو
٢٣٦	قعنب

رقم البيت	الوارد من الأعلام
٢٦٥	حسان - عامر - أبو عثمان
٢٦٦	أبو عمران
٢٦٧	عمران
٢٦٨	عليّ
٢٩٩	سنان
٢٧٥	أحمد
٢٧٨	هند - دعد - كلثم - سعاد - مخلب
٢٧٩	كلثم - سعاد
٢٨٩	خالد - زيد

(١) ذكر (زيد) فى البيت ٢٨٩ مرتين ، وختمت به الأعلام ، والملاحظ أن الخليل بدأ به فى البيت رقم ٢٨ وانتهى به أيضا ، ترى هل تكون شهرة التمثيل بزيد وعمرو عند النحاة لأن الخليل أكثر من استخدامه لهما ، فقد ورد (زيد) سبع عشرة مرة ، وورد عمرو ثلاث عشرة مرة ، وهما أكثر علمين استخداماً فى المنظومة .

obeikandi.com

خامساً :عناوين الخليل في المنظومة النحوية

يستطيع المتأمل لعناوين الخليل فى هذه المنظومة التى وصلت إلى سبعة وأربعين عنواناً أن يلاحظ مايلى :

أولاً : قصر عناوين الخليل نسبياً ، وذلك إذا قيست بعناوين الكتب النحوية التى جاءت بعده مثل كتاب سيويه الذى كان للخليل دور كبير فيه بآرائه المذكورة ، والخليل - فى ذلك - متسق مع نفسه حيث كتب هذه المنظومة النحوية - فى غالب الأمر - للشادين فى حقل النحو ، ومن هنا لابد من التيسير ، فوجدناه فى عناوينه ، كما وجدناه فى كيفية تناول القضايا النحوية التى طرحها ؛ حيث جاء كل ذلك سهلاً وميسراً دون إسراف فى الطول أو تعقيد فى الأداء ، ويبدو أن هذه كانت هى سمة الخليل بشكل عام ، حيث اتسم كتاب (الجمل فى النحو العربى) بهذه السمة أيضاً ، ولم يتعد الخليل فى (العين) عن هذا التناول فى الكلام عن معانى الكلمات ، فالملاحظ أنه كان يصل إليها من أقصر طريق . وإن كنا لسنا على وجه اليقين من أن الخليل هو الذى وضع هذه العناوين إلا أن هذا الاتساق ، وهذا المنهج التسهيلى الذى اتسم بقرب التناول يرجح أن هذه العناوين من وضع الخليل لا من وضع غيره .

وهذه العناوين التى وصلت إلى سبعة وأربعين عنواناً ، جاء منها أربعة وثلاثون عنواناً ما بين كلمة واحدة أو اثنتين أو ثلاث بعد حذف كلمة باب ، وتسعة عناوين ، كلماتها من أربع إلى ست ، والباقى وهو عبارة عن أربعة عناوين وصلت كلماتها إلى سبع كلمات أو أكثر ، هذه العناوين الأربعة هى :

باب «أى» إذا ذهب مذهب مالم يسمّ فاعله

باب «أى» إذا ذهب مذهب الفاعل والمفعول به .

باب الذى ومن وما اتصلا بها وهى المعرفة .

باب إذا قدّمت الأسماء على الأخبار تقديم الفعل

ومقارنة بعناوين سيبويه نجد أن الخليل كان مقتصدًا إلى حد كبير ، وفيما يلي نموذجان من عناوين سيبويه :

يقول سيبويه : « هذا باب ما ينتصب فيه المصدر كان فيه الألف واللام أو لم يكن فيه على إضمار الفعل المتروك إظهاره ؛ لأنه يصير فى الأخبار والاستفهام بدلا من اللفظ بالفعل ؛ كما كان الحذر بدلا من احذر فى الأمر » ، وكان يمكن اختصار كل هذا بقوله : (مواضع حذف عامل المفعول المطلق) إلا أنه كان يميل إلى العناوين التفصيلية .

النموذج الثانى لعناوين سيبويه هو قوله^(١) هذا باب ما جرى من الأسماء التى من الأفعال وما أشبهها من الصفات التى ليست بعمل ، وما أشبه ذلك مجرى الفعل إذا أظهرت بعده الأسماء أو أضمرتها « وكان يمكن اختصار كل هذا بقوله : (باب الأسماء العاملة عمل الأفعال) . ويبدو أن سيبويه كان يحب هذه العناوين التى تفصّل للقارئ المراد . فكل عناوين (الكتاب) على هذا النمط إلا قليلا ، وهذا على العكس مما كان يفعله الخليل ، الذى جاءت عناوينه فى المنظومة قصيرة معبّرة ، حتى العناوين التى اتسمت بالطول - إلى حد ما - تعد قصيرة إذا قيست بعناوين سيبويه ، ومثال ذلك النماذج الأربعة المذكورة منذ قليل . ومثال العناوين القصيرة لدى الخليل قوله :

باب رفع الاثنين - باب حروف الجر - باب الفاعل والمفعول - باب الترخيم - باب الجزم الخ .

(١) الكتاب ١/ ٣٣٥ .

ثانياً : مزج الخليل بين العناوين الكلية التى تضم باباً نحويًا كاملاً ،
والعناوين الجزئية التى تغطى جانباً محدوداً فى باب نحوى كبير ، إلا أن السمة
الغالبة لديه هى تلك العناوين الجزئية ، فأمثلة العناوين الكلية : باب حروف
كان وأخواتها ، باب حروف إن وأخواتها ، باب الترخيم ، باب الاستثناء ،
باب المعارف ، باب النكرة ، باب ما يجرى ومالا يجرى (المنصرف وغير
المنصرف) وأمثلة العناوين الجزئية : باب التاء الأصلية وغير الأصلية (عمات
وأبيات) ، باب النداء المفرد ، باب النداء المضاف ، باب كم إذا كنت مستفهما
بها . . الخ ولم يكن الخليل يحذّر الاتيان بالعنوان الكلى ، ثم يأتى تحته
بالعناوين الجزئية ، فالعنوان الكلى تندرج جميع جزئياته تحته ، ويأتى
بالجزئى بعده لموضوع آخر .

ثالثاً : غرابة بعض العناوين لديه

ترد عند الخليل بعض العناوين التى لا تعطى معناها ، ولا يفهم المقصود
منها إلا إذا قرئت المادة النحوية المدرجة تحتها .

ومن أمثلة ذلك : باب ضارين ، وهو يقصد الأسماء العاملة عمل
الأفعال إن أضيفت وجراً ما بعدها ، أو نونت ونصب ما بعدها ، حيث يقول
الخليل تحت هذا العنوان .

فتقول ضاربٌ خالد أو ضاربٌ .: زيداً ، وزيد خائف يترقب
أن أنت نونت الكلام نصبتة .: فتصح منه فروعُه والمنصب

رابعاً : نجد أحياناً بعض العناوين المحيرة ، التى يصعب الربط بينها وبين
ما يندرج تحتها من قواعد ، ومثال ذلك عنوان أطلق عليه الخليل : (باب
مررت) قال تحت هذا العنوان^(١) :

(١) انظر الأبيات ٢٤٢ إلى ٢٤٦ .

ومررت بالرجل المحدث جالساً .: وبعيد سوء جالساً لا يُنسب
وإذا جمعت مذكراً ومؤنثاً .: فالفعل للذكران منهم يغلب

ثم ذكر بيتين يشير فيهما إلى أن المعرفة تُغلب على النكرة ، وأتى بمثال دال
على ذلك وقع حالا لصاحبه المتنوع بين التعريف والتكثير ولا أدري ماسراً الربط
بين تغليب المذكر على المؤنث ، وتغليب المعرفة على النكرة وباب مررت .

وما انطبق على باب مررت ينطبق على باب أطلق عليه الخليل .

باب كل شيء حسنت فيه التاء ، ويقول فيه^(١) :

وتقول لا حولٌ لنا لا ناصرٌ .: للمرء إلا الواحد المترقب
فإذا تقدمت الصفات فرفعها .: لا عندنا رجل يصيد مكلب

ولا أدري ماسراً العلاقة بين الشيء الذى حسنت فيه التاء وبين (لا) النافية
المهملة أو العاملة عمل ليس وكذلك الصفات التى جاءت بمعنى الأخبار ، وقد
سبق الكلام عليها عند الكلام عن مصطلحات الخليل ، وقد جاء عنوان : باب
النداء المضاف غير مطابق لما بعده أيضاً حيث تكلم تحت هذا العنوان عن
العطف على النداء المفرد بالكلمات المقترنة بأل قائلاً^(٢) :

يا زيد والضحاك سيراً نحونا .: فكلكما عيل الذراع مجرب

إن تفسيرى لهذه الظاهرة هو أن هذه العناوين وضعت خطأ لهذه الأبيات
حيث حدث سقط لبعض الأبيات وبعض العناوين ، فجاء هذا الاضطراب من
النسخ ، وخاصة أنه ليس بين أيدينا النسخة الأصلية ، وربما نجد نسخة ،
أخرى فيما بعد تستقيم بها العناوين مع القواعد المدرجة تحتها ، تكون أقدم
تاريخاً وأصح رواية . وأكثر استقامة .

(١) البيتان ٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٢) البيت ١١٠ .

خامساً : يطلق الخليل - أحياناً - الباب على الكلمات التى تحتاج إلى معالجات خاصة ، وفى هذه الحالة يكون العنوان منسوباً إلى تلك الكلمات ، لا منسوباً إلى القضية النحوية التى يعالجها مثل باب حسب ، قطك وقدك ، باب ويسح وويل فى الدعاء ، باب رب وكم ، باب مذ ومنذ ، باب كم إذا كنت مستفهما بها ، باب إذا أردت أمس بعينه ، وهذه الأبواب عبارة عن معالجات خاصة لبعض الكلمات لا تحتمل بابا نحويا مستقلاً ، ولكن الخليل سمّاها أبواباً ، هذه الطريقة وجدت فيما بعد عند سيويه فى الكتاب وعند السيرافى فى شرحه لكتاب سيويه ، ويبدو أن ذلك كان من تأثير الخليل .

obeikandi.com

سادساً :قضايا نحوية للمناقشة

هذه مجموعة من القضايا النحوية التى تستحق التوقف أمامها لما لها من طبيعة خاصة فى تناول الخليل لها ، إما من ناحية كيفية معالجة الخليل لها ، أو من ناحية وضعها تحت عنوان له طابع خاص أو كيفية تعامل الخليل مع قضايا النحو العربى دلاليا من خلال ظاهرة الاكتمال أو النقصان الدلالى - وسوف تأتى - أو ما يمكن أن يوحى به رأى الخليل فى وجود تعارض بين رأيه الوارد فى المنظومة ورأيه الوارد فى كتاب سيبويه أو ما أشبه ذلك ، وهذه القضايا استحققت منا التوقف لسببين :

الأول : هذا التناول يكشف أمرها ويستجلى حقيقتها .

الثانى : ما يمكن أن يضيفه تناول هذه القضايا من وجود تشابه قوى بين آراء الخليل فى المنظومة وآرائه الواردة فى مصادر أخرى مثل : العين - الكتاب - الجمل - ولعل ذلك يكشف أيضا عن صحة نسبة هذه المنظومة إلى الخليل ، وفيما يلى نفرّد لكل قضية حديثا مستقلا :

١ - « أمس » بين الإعراب والبناء عند الخليل

يقول الخليل فى باب « إذا أردت أمس بعينه »^(١) :

فإذا قصدت تريد أمس بعينه .: فالخفض حليته الذى يستوجب يشير الخليل إلى بناء « أمس » إذا كانت للدلالة على يوم معين ، وهو

(١) المنظومة، البيت رقم ٢٥٢ وقرأ بقية الأبيات حتى ٢٥٦ .

اليوم الذى قبل يومنا مباشرة ، وبنائها على الكسر (الخفض) ، وشرطها الثانى ألا تقترن بالالف واللام ، فإن اقترنت أعربت ، يقول الخليل :

فتقول كنت أسير أمس فعنّ لى .: شخص فأقبلت الدموع تحلب وتقول إن دخلته لام قبلها .: ألف مضى الأمس البعيد الأخبى ولقد رأيت الأمس خيلك كالقطا .: وعلى فوارسهن بُردٌ مذهب

فأمثلة الخليل مضى الأمس (بالرفع) ، ورأيت الأمس (بالنصب) تشير إلى إعرابها فى هذه الحالة ، وما قاله الخليل كان عليه معظم النحاة^(١) ف (أمس) تبنى مع التعريف بدون أل ، إذا أريد بها اليوم الذى قبل يوم التكلم وتعرب إذا أريد بها التنكير ذلك البناء بشرط ألا تقترن بها ال أو تجمع أو تضاف أو تصغر^(٢) ويضيف الخليل شرطاً آخر ورد فى الكتاب وهو ألا يسمّى بها^(٣) ويظهر ذلك من النص التالى :

يقول سيبويه^(٤) : « وسألته (أى الخليل) عن أمس اسم رجل ؟ فقال : مصروف ؛ لأن أمس ليس هنا على الحد^(٥) ولكنه لما كثر فى كلامهم وكان من الظروف تركوه على حال واحدة ، كما فعلوا ذلك بأين ، وكسروه كما كسروا غاقٍ إذ كانت الحركة تدخله لغير إعراب ، كما أن حركة غاقٍ لغير إعراب ، فإذا صار اسماً لرجل انصرف ؛ لأنك قد نقلته إلى غير ذلك الموضع ، كما أنك إذا سميت بغاقٍ صرفته » ومن الواضح الذى لاشك فيه أن كلام الخليل صريح فى أن كسرة أمس إنما هى « حركة تدخله لغير إعراب » وناقل الكلام عن الخليل سيبويه نفسه الذى قال فى موضع آخر من الكتاب^(٦) « وزعم الخليل

(١) لكاتب هذه السطور حديث طويل عن (أمس) فى كتاب التعريف والتنكير فى النحو العربى من ص ١٧٥ إلى ص ١٨٣ .

(٢) حاشية الصبان ١/٦٣ ، شرح الأشمونى ٣/٢٦٧ .

(٣) الكتاب ٣/٢٨٣ .

(٤) الكتاب ٣/٢٨٣ .

(٥) أى فى الدلالة على معين من الأيام .

(٦) الكتاب ٢/١٦٢ ، ١٦٣ .

أن قولهم : لاه أبوك ولقيته أمس ، إنما هو على : لله أبوك ، ولقيته بالأمس ، ولكنهم حذفوا الجار والألف واللام تخفيفاً على اللسان . ويبدو أن سيبويه فهم من كلام أستاذه واحداً من المعنيين التاليين :

الأول : أن التعريف أو التعيين أو القصد إلى أمس بعينه إنما جاء من قبيل تضمن (أمس) معنى لام التعريف التى حذفت تخفيفاً وذلك سبب بناء الكلمة .

الثانى : وهو معنى - أظنه مستبعداً - أن يكون سيبويه قد فهم من كلام الخليل أن حرف الجر المحذوف جر الكلمة ، وعلى هذا تكون الكلمة معربة ، وسبب الحذف - كما قال الخليل - نقلاً عن سيبويه^(١) « أن المجرور داخل فى الجار فصارا عندهم بمنزلة حرف واحد ، فمن ثم قبح ، ولكنهم قد يضمرونه ويحذفونه فيما كثر من كلامهم ، لأنهم إلى تخفيف ما أكثروا استعماله أحوج » وقد أدى فهم أحد المعنيين ، أو ربما كليهما أن يقول سيبويه^(٢) تعليقا على كلام الخليل : « ولا يقوى قول الخليل فى أمس ، لأنك تقول ذهب أمس بما فيه » ؛ أى أن كلمة « أمس » جاءت بالبناء على الكسر وهى فاعل ، ولا يصح تقدير ذهب بالأمس لاختلال الدلالة فـ (أمس) فاعل ولا يصح هذا التقدير مع الفاعل .

أما عن المعنى الأول فالقصد فيه بيان كيف جاء التعريف والتعيين فى كلمة (أمس) هذا التعيين كان سببا فى البناء ، ويبدو أن هذا رأى لبعض النحويين جاءوا بعد الخليل ، فالسيوطى ينقل عن ابن القواس فى شرح الدرة قوله^(٣) : «أمس مبنى لتضمنه معنى لام التعريف ، فإنه معرفة بدليل أمس الدائر وليس بعلم ولا مبهم ولا مضاف ولا مضمّر ولا بلام ظاهرة فتعين تقديرها » وقول صاحب البسيط^(٤) : « ولولا أنه معرفة بتقدير اللام لما وصف بالمعرفة ، لأنه ليس أحد المعارف ، وهذا مما وقعت معرفته قبل نكرته » .

(١) الكتاب ١٦٣/٢ .

(٢) الكتاب ١٦٤/٣ .

(٣) الأشباه والنظائر ١٢٦/١ .

(٤) الأشباه والنظائر ١٢٦/١ .

والخليل ربط ربطاً قوياً بين بناء (أَمْس) ودلالاتها على معين ولم يشر إلى كيفية ذلك في المنظومة ، وإن كان واضحاً أن القصد والتعريف هما سبب البناء مشتركاً عدم وجود (ال) ظاهرة في السياق ، هذا من خلال أبيات المنظومة ، وكذلك مما ورد عنه صراحة في كتاب الجمل حيث يقول^(١) تحت عنوان « الخفض بالبنية » : « و (أَمْس) أيضاً مخفوض في الفاعل والمفعول به تقول : أتيت أَمْس ، وذهب أَمْس بما فيه ، وكان أَمْس يوماً مباركاً ، وإن أَمْس يوم مبارك . فإذا أدخلت عليه الألف واللام ، أو أضفته إلى شيء أو جعلته نكرة أجريته . تقول : كان الأَمْسُ يوماً مباركاً ، وإن الأَمْسَ الماضي يوم مبارك ، وكان أَمْسُكُمْ يوماً طيباً . قال الشاعر :

ولا يُدْرِكُ الأَمْسُ القريب إذا مضى

بمرّ قُطَامِيٍّ من الطير أجدا^(٢)

وقال زهير :

وأعلم ما في اليوم والأَمْسِ قبله

ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِي

فأجراه »

من خلال القول السابق للخليل يظهر لنا الربط الواضح بين البناء والدلالة على معين والإعراب (الإجراء) على حد القول السابق للخليل : « فإن جعلته نكرة أجريته » ويشترط لبنائه أيضاً عدم دخول (ال) عليه أو إضافته .

يبدو مما سبق التوافق واضحاً بين رأى الخليل الوارد في المنظومة وفي كتابه

(١) الجمل للخليل ١٨١ .

(٢) البيت من قول الشاعر القطامي الجمل ٣٦٠ .

القطامي : الصقر ، والأجلد الشديد

الجملة ، وفى كتاب سيبويه^(١) عندما أشار إلى أن الحركة فى (أمس) لغير الإعراب . من هنا فلا تناقص بين المواضع الثلاثة .

وعلى هذا يمكن القول : إذا كان اعتراض سيبويه على الخليل من ناحية أن معنى التعريف كامن فى كلمة « أمس » بالبناء والدلالة على معين دون تقدير (ال) أقول إذا كان القصد كذلك فإن سيبويه محق كل الحق ، ويكون اعتراضه جيداً وفى مكانه الصحيح ، لأن الارتباط بين الشكل والمعنى فى كلمة (أمس) بالبناء ملموس ، بل ومؤكد ، فهى معرفة بالبناء على الكسر إذا قصد بها يوم معين ، فإذا دلت على ماض غير محدد فإنها تنون وتتحوّل من البناء إلى الإعراب ، فالشكل ارتبط بالدلالة دون احتياج لتقدير (ال) مما جعل ابن يعيش يقول^(٢) عن (أمس) بالبناء : « إن أمس قد حضر وشوهد فحصلت معرفته بالمشاهدة وأغنى ذلك عن العلامة » أى عن تقدير (ال) ، ويكون رأى سيبويه معبراً بقوة عن هذه الحالة .

أما إذا كان المعنى الثانى هو المقصود ، وهو إعراب كلمة (أمس) بالجر فإن الأمر يحتاج إلى وقفة متأنية مع سيبويه ، ويتضح الأمر فيما يلى :

أولاً : ما صرح به الخليل أكثر من مرّة أن حركة (أمس) حركة دخلته لغير الإعراب^(٣) ويؤكد أنه يقصد بغير الإعراب البناء ما رواه الأصمعى المتوفى سنة ٢١٦ هجرية من أنه سأل الخليل : لم خفض أمس فقال الخليل^(٤) : « مبنى كخدام وقطام لأنه لم يتمكّن تمكّن الأسماء » والبناء هنا ضد الإعراب .

ثانياً : إذا كان قصد سيبويه صحيحاً واستقام فهمه للخليل على أنه يقصد إعراب أمس فإن ذلك لا يعنى رأى الخليل ، لأن سيبويه نفسه نقل عن الخليل

(١) الكتاب ٢٨٣/٣ .

(٢) شرح المفصل ١٠٧/٤ .

(٣) الكتاب ٢٨٣/٣ .

(٤) مراتب النحويين ص ٦٣ .

في آخر كلامه عبارة تقول : « سمعنا ذلك ممن يرويه عن العرب »^(١) ، بل إن سيبويه نفسه يقول في بداية الكلام عن هذا الموضع « وزعم الخليل » فيتوافق أول الكلام (زعماً) مع آخره (سماعاً) عن العرب ، ولعل ذلك إشارة إلى أن هذا القصد ليس من رأى الخليل .

ثالثاً : ربما كان كلام الخليل عن موضع خاص ، إذ إنه يتحدث عن التشابه بين (لاه أبوك) و (لقيته أمس) قائلاً :^(٢) « إنما هو على : لله أبوك ولقيته بالأمس ، ولكنهم حذفوا الجار والألف واللام تخفيفاً على اللسان . وليس كل جار يضم ، لأن المجرور داخل في الجار » فالمثال « لقيته بالأمس » مختلف عن المثال الذي أورده سيبويه وهو « ذهب أمس بما فيه » .

والمثال الأخير يتوافق تماماً ، بل وتتوافق آراء سيبويه والخليل حتى في الأمثلة فيما ورد في كتاب الجمل^(٣) ، ويبدو أن كلام الخليل ارتبط بموقف خاص مقارنة بالمثال (لاه أبوك) ولم يكن الكلام على سبيل العموم ، ولعل المثال التالي الذي ورد عند الخليل في كتاب الجمل يثبت ذلك . يقول الخليل : « ويقال صمام أيضاً ، كما قال الشاعر^(٤) :

غَدَرْتُ يَهُودُ ، وَأَسْلَمْتُ جِيرَانُهَا

صَمًّا لَمَّا فَعَلْتُ يَهُودُ صَمَامِ

ترك التنوين في (يهود) ونوى الألف واللام فيه لولا ذلك لنون .
وربما كان قصد الخليل من تحليل (لقيته أمس) على مثال (غدرت يهود)

(١) الكتاب ٢ / ١٦٤ .

(٢) الكتاب ٢ / ١٦٢ .

(٣) الجمل ١٨١ .

(٤) الأسود بين يعفر شرح الأشموني ٨١ / ٣ شرح الشواهد للعيني ١١٢ / ٤ اللسان (صمم) وصمًا ، أى صمى صمًّا والمعنى : زدى ، وصمام : الداهية .

فليست الكسرة كسرة بناء ويكون المعنى على أن الأمس ليس معينا ، وتكون (ال) المقدرة للعهد ، و (الأمس) معناه اليوم الماضى المعهود بين المتخاطبين ولية يومنا أم لا ، وأيضا ليست الضمة فى (يهود) ضمة بناء ؛ لأن الكلمة ليست مبنية ، ولهذا فمن رأى أن يكون كلام الخليل مرتبطا بهذا الموقف الخاص ، ومما قاله الخليل يؤكد هذا رأى قوله : « وليس كل جار يضمّر »^(١) .

رابعاً : لعل عدم ثبات معنى المصطلحات النحوية هو الذى صنع هذا الموقف ، فربما كان استخدام الخليل للكلمات (الجار) (الجر) (المجرور)^(٢) مع كلمة أمس - وغالبا ما يستخدم (الجر والمجرور) فى حالة الإعراب - أقول ربما كان استخدام الخليل لهذه المصطلحات فى الحديث عن كلمة (أمس) عاملاً على فهم سيبويه على أن الخليل يقصد الإعراب ، فقد جاء فى مجالس العلماء^(٣) « أن الخليل سأل الأصمعى أن يفرّق بين مصطلحى الخفض والجر » فقد ظل التناوب بين المصطلحين للمعرب والمبنى قائماً لدى الخليل فيما ورد عنه ، وفى الجمل قال^(٤) : « تفسير وجوه الخفض ، وهى تسعة : خفض بعن وأخواتها ، وخفض بالإضافة وخفض بالجوار . . . إلخ » ثم قال^(٥) « فالجر بعن وأخواتها قولك عن محمد ولعبد الله . . . إلخ » والملاحظ أن ذلك فى حالة الإعراب ، وعندما تكلم عن حالة بناء أمس على الكسر قال :^(٦) « وأمس أيضاً مخفوض فى الفاعل والمفعول به . تقول : أتيت أمس » إذن لم يكن هناك تفريق بين الخفض والجر ، وإن كان هناك تفريق بين الإعراب والبناء غالباً لدى الخليل كما رأينا منذ قليل .

(١) الكتاب ١٦٣/٢ .

(٢) الكتاب ١٦٣/٢ .

(٣) مجالس العلماء ٢٥٣ .

(٤) الجمل ١٧٢ .

(٥) السابق نفسه .

(٦) السابق ١٨١ .

خامساً : فهم السيرافى للخليل على أنه يقصد فى (أمس) البناء فعندما قال سيويه^(١) : « وسألت الخليل عن قوله : فداء لك ، فقال : بمنزلة أمس ؛ لأنها كثرت فى كلامهم والجرّ كان أخف عليهم من الرفع ، إذ أكثروا استعمالهم إياه وشبهوه بأمس ، ونوّن لأنه نكرة ، فمن كلامهم أن يشبهوا الشيء بالشيء ، وإن كان ليس مثله فى جميع الأشياء » . يعلق السيرافى على قول الخليل « بمنزلة أمس » قائلاً :^(٢) يعنى أنه مبنى . وإنما بنى لأنه وضع موضع الأمر : كأنه قال : ليفدك أبى وأمى « فبناء كلمة « أمس » عند الخليل كان واضحاً لدى السيرافى وهو ضد الإعراب .

لم يبق إذن فى نهاية الأمر إلا أن نقول : لعل سيويه كان يقصد المعنى الأول وهو تعريف (أمس) ودلالاتها على معين عن طريق تقدير (ال) ولهذا اعترض عليه وفى اعتراضه وجهة ومنطق ، ويبقى القول بأنه لا تناقض بين الوارد عن الخليل فى الكتاب أو فى المنظومة أو الجمل ، فانسقت الأقوال دون تعارض أو مخالفة إلا فى محاولة تفسير أو فهم ، دون أن يمسّ جوهر الموضوع أو يظهر نوع من التناقض فيما روى عنه .

٢ - « حتى » وعملها

يقول الخليل تحت باب حتى إذا كانت غاية^(٣) :

وإذا أتت حتى وكانت غاية .: فاخفض وإن كثروا عليك وألبوا
فتقول قد خاصمت قومك كلهم .: حتى أخيك لأن قومك أذنبوا
واستمر الخليل فى التمثيل ليؤكد أن حتى لا تجر الاسم بعدها إلا إذا كان
معناها للغاية ، فإذا لم يكن كذلك فقد يرفع ما بعدها على الابتداء أو الفاعل

(١) الكتاب ٣/٣٠٢ .

(٢) الكتاب ٣/٣٠٢ (هامش) نقلاً عن شرح كتاب سيويه للسيرافى .

• (٣) المنظومة البيت ١٣٥ وما بعده .

أو نائبه ، أو ينصب على المفعولية ، وذلك إذا جاء فعلها بعدها هذا الفعل الذى لا يكذب فى عمله رفعا أو نصبا أو على حدّ قول الخليل^(١) .

لما أتيت بفعلها من بعدها .: أجريت بالفعل الذى لا يكذب

وهذا المعنى نفسه يؤكد الخليل فى كتابه الجمل^(٢) عندما يقول : « والخفض

بحتى إذا كان على الغاية قولهم : كلمت القوم حتى زيدٍ معناه : حتى بلغت

إلى زيد ومع زيد . وقال الله جل ذكره :^(٣) ﴿ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ .

معناه إلى مطلع الفجر ، وحتى فيه ثلاث لغات ، تقول : أكلت السمكة حتى

رأسها وحتى رأسها ، وحتى رأسها . النصب : حتى أكلت رأسها (على أنها

مفعول به) والرفع : حتى بقى رأسها (فاعل) ، والخفض : حتى وصلت

إلى رأسها ، وأكلت السمكة مع رأسها (على الغاية) وإن شئت قلت :

(رأسها) على الابتداء . قال الشاعر^(٤) :

ألقى الحقيقة كى يخفف رحله .: والزاد حتى نعله ألقاها

و: حتى نعله بالجر و : حتى نعله ألقاها بالنصب . النصب

حتى ألقى نعله ، والرفع حتى ألقى نعله نائب فاعل ، وإن شئت رفعه

بالابتداء . »

والملاحظ أن هذا الكلام يتوافق مع ما جاء فى منظومته وفى كتاب الجمل ،

حتى فى تمثيله عندما قال : أكلت السمكة حتى رأسها فى الجمل ، وفى

المنظومة : أكلت الحوت حتى رأسه وكلمة رأسه ضبطت بالرفع والنصب

(١) المنظومة البيت ١٣٩ .

(٢) الجمل فى النحو العربى ١٨٤ .

(٣) سورة القدر الآية ٦ .

(٤) البيت نسب فى الكتاب لابن مروان النحوى ٩٧/١ وقد علق الأستاذ عبد السلام هارون محقق

الكتاب قائلا : والصواب : أنه مروان النحوى الكتاب ٩٧/١ (هامش) وانظر معجم الأدباء

١٩٦/١٩ ، شرح المفصل ١٩/٨ شرح الأشمونى ٩٧/٣ شرح الشواهد للعيني ٩٧/٣ بغية

الوعاة ٢٩٠ .

والجر لم ولم يفترق المثال إلا فى كلمة الحوت والخليل نفسه يقول عنها فى معجم العين : (١)

« الحوت معروف ، والجميع الحيتان ، وهو السمك »

ألا يدل هذا الترابط بين مصادر الخليل الثلاثة لم المنظومة - الجمل - العين لم على اتساق فى الكلام وأداء دلالى موحد . وربما ما ورد فى العين لقريظة على أن الكلام إنما هو للخليل نصا - بل قارئ الكتاب لسيبويه ليكاد يجزم بأن رأى الوارد فيه للخليل فسيبويه يعرض لكل (الأراء التى مضت لدى الخليل ثم يقول (٢) : « وقد يحسن الجر فى هذا كله ، وهو عربي . وذلك قولك لقيت القوم حتى عبد الله لقيته ، فإنما جاء بلقيته توكيدا بعد أن جعله غاية ، كما تقول مررت بزيد وعبد الله مررت به ، قال الشاعر ، وهو ابن مروان النحوى :

ألقى الصحيفة كى يخفف رحله .: والزاد حتى نعلِه ألقاها
والرفع جائز ، كما جاز فى الواو وثم ، وذلك قولك : لقيت القوم حتى عبد الله لقيته ، جعلت عبد الله مبتداً ، وجعلت لقيته مبنيا عليه ، كما جاز فى الابتداء » .

واللافت للنظر هنا هو ذلك البيت الوارد عند سيبويه فى نصّه ، فقد ورد من قبل لدى الخليل ، ليس من زاوية التكرار فقط ، بل من زاوية أخرى وهى معرفتنا بأن قائل هذا البيت ابن مروان النحوى إنما هو مروان بن سعيد بن عباد ابن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة ، أحد أصحاب الخليل المتقدمين المبرزين فى النحو (٣) ، ولعل ذلك ينبىء عن أن الخليل قد أخذ هذا البيت عن صاحبه مروان مستشهداً به (٤) ثم جاء سيبويه لينقل هذا رأى كاملاً عن الخليل مع

(١) ٢٨٢/٣ .

(٢) الكتاب ٩٧/١ .

(١) الكتاب ٩٧/١ هامش للأستاذ المحقق عبد السلام هارون

(٢) ولعل ذلك يدل على إمكانية أن يذكر الخليل بيتا من الشعر ليس له كما يذكر رأيا لأحد من معاصريه كما فعل مع سيبويه وقطرب ، وأيضا ربما يعطى دلالة أخرى مهمة عندما يستخدم الخليل (مهلب) فى نماذجه التمثيلية .

البيت السابق المستشهد به ، وفي عبارة سيويه ما يوحى بذلك عندما يقول خلال العرض السابق : « يحسن الجر في هذا كله ، وهو عربى » وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أن ما ورد عن الخليل في منظومته لا يتعارض مع ما ورد عنه في بقية المصادر ، ولعل ما ورد عند سيويه قرينة قوية على أن هذا رأى للخليل ، ربما لم يشر سيويه صراحة إلى ذلك ، لكن أسلوبه الذى ألمحنا إليه سابقا ، بالإضافة إلى استخدامه لغة الحوار فى هذا الموضوع قائلاً « فلو قلت » ، « فإن قلت » يدل على ما نحاول إثباته ونبحث عنه .

النداء المفرد المنعوت :

موضوع النداء لدى الخليل موضوع يستحق الدراسة ، حيث يظهر لنا أن بعض عناوين جزئياته جاءت فى غير مكانها ، أو جاءت نماذج التمثيل عنده مخالفة للعنوان أو أن هناك شيئاً ما يجب أن يلحظ لدى الخليل ، ومما استوقفنى عنوان : باب النداء المفرد المنعوت الذى يقول الخليل تحته^(١) :

وإذا أتيت بمفرد ونعتّه .: فانصب فذاك- إذا فعلت - الأصوبُ
يا راكبا فرساً ويا متوجّها .: للصيد دونك إن صيدك مُحصَبُ

عند قراءتى لهذين البيتين ذهبت فى أول الأمر إلى أن البيت الثانى وضع خطأ تحت هذا العنوان حيث يعلم من له علاقة - ولو يسيرة - بالنحو أن المثال : يا راكبا فرساً نداء من النوع الشبيه بالمضاف ، وليس نداء المفرد ، لأنه قد تعلق به شيء من تمام معناه . فحاولت استقصاء الأمر فوجدت ما هو أكثر غرابة من ذلك . فقد ورد فى كتاب الجمل نص غريب يجب أن نتوقف أمامه بعد نقله كاملاً يقول الخليل^(٢) : « والنصب من نداء النكرة الموصوفة قولهم : يا رجلاً فى الدار ، ويا غلاماً ظريفاً ، نصبت لأنك ناديت من لم تعرفه ،

(١) المنظومة البيتان ١١١ ، ١١٢ .

(٢) الجمل ٥٢ / ٥٣ .

فوصفته بالظرف ، ونحوه قول الله تبارك وتعالى : فى (يس)^(١) : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ وقال الشاعر^(٢) :

فياراكبا إما عرضت فبلغن .: ندامى من نجران ألا تلاقيا
وقال آخر^(٣) :

يا ساريا بالليل لا تخش ضلّة .: سَعِيدُ بن سَلَمٍ ضوء كل بلاد
وقال آخر^(٤) :

أداراً بحزوى هجت للعين عبّرة .: فماء الهوى يرفض أو يترقرق
فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها .: ويا حاطبا فى غير حبلك تحطب^(٥)
فنصب (راكبا) و (ساريا) و (موقدا) و (داراً) لأنها نداء نكرة
موصوفة « .

ويبدو أننا هنا أمام مشكلة ، وهى مفهوم كلمة (مفرد) لدى الخليل
وكذلك هل يرتبط بيتا المنظومة السابقان اللذان أشار فى أولهما إلى كلمة
مفرد ، ثم مثل للثانى بقوله : (يا راكبا فرساً) .

لو كان المقصود بالمفرد (العلم المفرد) لكان قصد الخليل أن المفرد المنعوت
مثل يا زيد الطويل (رفعا ونصبا لكلمة الطويل) وإن كان يميل إلى النصب
كما تبين من عبارته فى المنظومة :

(١) الآية ٣٠ .

(٢) البيت منسوب لعبد يغوث فى كتاب سيبويه ٢/ ٢٠٠ ، المقتضب ٤/ ٢٠٤ شرح الأشموني ٣/ ١٤ ،
شرح الشواهد للعيني ٣/ ١٤ . شرح المفصل ١/ ١٢٧ .

(٣) لم أعثر له على قائل .

(٤) ذو الرمة الكتاب ٢/ ١٩٩ ، شرح المفصل لابن يعيش ٧/ ٦٣ .

(٥) ورد البيت فى همع الهوامع ١/ ١٤٨ .

لم فانصب فذاك - إذا فعلت - الأصوب لم

ويبدو من خلال الحوار بين الخليل وسيبويه أن ذلك هو المقصود قال سيبويه^(١) : « قلت : أرأيت قولهم : يا زيد الطويل - علام نصبوا الطويل ؟ قال : نصب لأنه صفة لمنصوب . وقال : وإن شئت كان نصبا على أعنى . فقلت : أرأيت الرفع على أى شىء هو إذا قال : يا زيد ؟ قال هو صفة لمرفوع » وواضح أن النصب له تخريجان عند الخليل ، أما الرفع فله تخريج واحد ، ومن هنا ربما كان الأرجح النصب .

وعلى هذا يكون البيت التالى من المنظومة ليس واقعاً تحت هذا العنوان ، وإنما هو بيت منفصل يكون له عنوان : باب نداء النكرة الموصوفة مثلاً .

وربما كان هناك معنى آخر لكلمة (مفرد) وهو غير المركب ، وتعنى الكلمة الواحدة غير المركبة سواء كانت علماً أو غيره ، ولعل فى قول الخليل الآتى ما يدل على ذلك :

فإذا دعوت من الأسامى مفرداً .: فارفع فهو لك إن رفعت منصوب

وهذه إشارة إلى أن من الأعلام ما هو مفرد وما هو غير مفرد (مركب) . وكلمة مفرد يمكن أن تعطى هذه الدلالة من حيث تقسيماتها الواردة فى النحو العربى ، حيث يكون (المفرد) هو ما ليس جملة ولا شبه جملة ، وكذلك (المفرد) هو ما ليس مضافاً ولا شبيهاً بالمضاف وهنا نضع رحالنا أمام ما ورد عند الخليل فى تمثيله فى المنظومة بقوله : يا راكبا فرساً : وما ورد فى الجمل : يا سارياً بالليل ، وقوله أداراً بحزوى ، وقوله يا موقداً ناراً مما أطلق عليه النحويون فيما بعد : الشبيه بالمضاف ، وهو كما يعرفه ابن هشام^(٢) بأنه « ما اتصل به شىء من تمام معناه » وتندرج تحته كل الأمثلة السابقة وقد قال سيبويه^(٣) : « وقال الخليل رحمه الله : إذ أردت النكرة

(١) الكتاب ١٨٣/٢ .

(٢) شرح قطر الندى وبل الصدى ٢٠٣ .

(٣) الكتاب ١٩٩/٢ .

فوصفت أو لم تصف فهذه منصوبة ؛ لأن التنوين لحقها فطالت ، فجعلت بمنزلة المضاف لما طال نُصِبَ وردّ إلى الأصل كما فعل ذلك بقبل وبعد ، وزعموا أن بعض العرب يصرف قبلاً وبعداً فيقول : ابدأ بهذا قبلاً ، فكأنه جعله نكرة . فإنما جعل الخليل رحمه الله المنادى بمنزلة قبل وبعد ، وشبهه بهما مفردين لم إذا كان مفرداً لم إذا طال أو أضيف شبهه بهما مضافين إذا كان مضافاً لأن المفرد في النداء في موضع نصب « وجعل الخليل - كما ذكر سيبويه - منه قول الشاعر :

أداراً بحزوى

وقول الشاعر :

فيا راكبا إما عرضت

وإذا انطبق على البيت الثاني إطلاق النكرة ، فإن البيت الأول يطلق عليه الشبيه بالمضاف ، أو على حدّ رأى الخليل - النكرة الموصوفة ، ويكون المقصود بكلمة (المفرد) الاسم النكرة غير المضاف الذى وصف . وتمثيل الخليل يتشابه تماماً فيما رواه عنه سيبويه من قول الشاعر (أداراً بحزوى) مع هذا القول نفسه الذى ورد فى (الجمل) ، وذلك أيضاً متطابق مع ما ورد فى المنظومة حيث جاء بالشبيه بالمضاف فى مثالين قائلاً :

يا راكبا فرساً ويا متوجها .: للصيد دونك إن صيدك مُحَصَّبُ

وعلى هذا لم يذكر الخليل ولا سيبويه ما يسمى بالشبيه بالمضاف بل وتبعهما المبرد^(١) فى عدم ذكر ذلك فى الشواهد نفسها ، مما دل على الاطراد فى عدم ذكر الشبيه بالمضاف واعتباره نكرة موصوفة لم أداراً بحزوى - يا ساريا بالليل لم أو غير موصوفة لم يا راكبا فرساً لم . ويبقى نص الخليل فى منظومته غامضاً فى دلالة ، فلا ندري ما الذى يقصده بشكل محدد .

(١) انظر المقتضب ٢٠٢/٤ - ٢٠٦ .

يقول الخليل تحت عنوان : « باب النداء المضاف »^(١)

فإذا أتت ألف ولام بعدها .: وأردت فانصب ما تريد وتوجب
يا زيد والضحاكُ سيرا نحونا .: فكلكما عبل الذراع مجرّب

وفى هذا العنوان وما تلاه مشكلة أخرى ، فما الذى يعود عليه الضمير فى
قوله « بعدها » . ربما يكون المقصود (لام بعد الألف) لتصبح (ال)
التعريفية ، ويكون السؤال اذن ما المقصود بالبيت ؟ ربما يقصد فى هذه الحالة
المنادى المضاف ، حيث يكون المضاف مقترناً بأل وفى هذه الحالة يكون حكمه
النصب وجوباً ، وإن كان هذا المعنى ضعيفاً إذ المضاف غير المقترن بأل يجب
نصبه أيضاً ، ويكون البيت الثانى لا علاقة له بالبيت الأول مع أنه يندرج تحت
العنوان ويفترض أن يكون له علاقة قوية به ، مع أن البيت الثانى ليس له
علاقة بالعنوان فى كل الأحوال .

إذن فالمقصود هو العطف على المنادى المفرد باسم مقترن بالألف واللام ؛
وذلك ما ورد فى المثال بالبيت الثانى فى قول الخليل : يا زيد والضحاكُ .
وعلى هذا يكون المقصود جواز عطف المقترن بال على المنادى بالنصب أو الرفع
وإن كان الواجب حسب القياس الرفع ، فإذا كان الخليل تكلم عن النصب أولاً
قائلاً : لم وأردت فانصب ما تريد لم فقد قال : (وتوجب) ، أى توجب يا زيد
والضحاكُ بالرفع حسب القياس» وقد نقل سيبويه عن الخليل ما يفيد ذلك حين
يقول فى الكتاب^(٢) : « وقال الخليل رحمه الله من قال يا زيد والنضر فنصب ،
فإنما نصب لأن هذا كان من المواضع التى يردّ فيها الشيء إلى أصله . فأما
العرب فأكثر ما رأيناهم يقولون : يا زيد والنضر ، وقرأ الأعرج : ﴿ يا جبال

(١) المنظومة البيتان ١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) ١٨٧ ، ١٨٦/٢ .

أوتى معه والطير^(١) ﴿ فرفع ، ويقولون : يا عمرو والحارث ، وقال الخليل رحمه الله : هو القياس كأنه قال ويا حارث ، ولو حمل الحارث على يا كان غير جائز البتة نصب أو رفع من قبل أنك لا تنادى اسماً فيه الألف واللام بيا . »

وإذا كان الخليل يشير إلى أن القياس الرفع ، فيكون واجبا لأن النصب - مع استخدام البعض له - يكون على غير القياس ، والمبرد يشير إلى أن الخليل وسيبويه يختارون الرفع^(٢) ، وتعليق السيرافي^(٣) الوارد على كلام الخليل السابق يصل بالكلام إلى حدّ ذكر الوجوب فإذا كان الاختيار فى النضر لم يا زيد والنضر لم الرفع لأنه علم ، فإن الاختيار فى مثل لم يا زيد والرجل لم النصب ، بل وجوب ذلك ، فالأخير ليس بعلم وهو اختيار أبى العباس وذكر الوجوب هنا فى تلك القضية وارد لدى الخليل والسيرافي الذى قام بشرح كتاب سيبويه ، وعلّق على آراء الخليل ، وفى كتاب الجمل أورد الخليل الآية الكريمة السابقة مشيراً إلى قراءة من قرأ (والطير) على الرفع ، ومجازه وليؤوب الطير معك^(٤) .

إذن فنصّ المنظومة مستقيم غير متعارض فيما نقله عنه سيبويه فى الكتاب وفيما ورد فى كتاب الجمل ، وإنما التعارض جاء بين العنوان وما اندرج تحته فقط حيث كان العنوان عن النداء المضاف والمندرج تحته كان عن العطف على المنادى .

٤ - قط ، قد ، حسب ، كفى

يشير الخليل إلى أن هذه الكلمات الأربعة . بمعنى واحد سواء ما جاء فى باب حسب وكفى أو ما جاء فى باب قطك وقدك يقول^(٥) :

(١) سورة سبأ الآية رقم ١٠ .

(٢) المقتضب ٢١٢/٤ .

(٣) الكتاب ١٨٧/٢ (هامش) من تعليق المحقق الشيخ عبد السلام هارون .

(٤) الجمل فى النحو العربى ٨٤ .

(٥) المنظومة البيت ١٨٣ .

وتقول قطك وقدك ألفا درهم .: فهما كحسبك في الكلام وأثقب والمعنى المشترك بينهما هو (يكفي) يقول الخليل^(١) : « وأما حسب (مجزوماً) فمعناه كما تقول : حسبك هذا ، أى كفاك ، وأحسبني ما أعطاني ، أى : كفاني » وفي موضع آخر من العين قال^(٢) : « قط خفيفة ، هى بمنزلة حسب ، يقال قطك هذا الشيء أى حسبك ، قال :

امتلاً الحوض وقال قطنى

قد وقط لغتان فى (حسب) لم يتمكننا فى التصريف ، فإذا أضفتها إلى نفسك قويتا بالنون فقلت : قدنى وقطنى ، كما قووا عنى ومنى ولدنى بنون أخرى ، قال أهل الكوفة : معنى (قطنى) كفانى ، النون فى موضع النصب مثل نون (كفانى) ، لأنك تقول : قط عبد الله درهم ، وقال أهل البصرة : الصواب فيه الخفض على معنى : حسب زيد وكفى زيد ، وهذه النون عماد^(٣) ومنعهم أن يقولوا : (حسبتنى) لأن الباء متحركة ، والطاء هناك ساكنة فكروها تغييرها عن الإسكان ، وجعلوا النون الثانية من لدنى عماداً للياء « وقد مثل الخليل لذلك فى منظومته بقوله :

قطنى وقدنى من مجالسة الألى

أما قوله^(٤) :

فإذا أتيت بقط فى تثقيلها .: فاخفض وقاك الله ما تترهب

ويعنى هذا الخفض ما عناه بقوله فى معجم العين^(٥) :

(١) العين ١٤٩/٣ .

(٢) ١٤/٥ .

(٣) يلاحظ استخدام الخليل لكلمة عماد ، وبهذا النص نرد على من أشاروا إلى أن نون العماد من مصطلحات الكوفيين ، فقد ورد فى نص الخليل مرتين ، انظر المدارس النحوية ١١١ ، ١١٢ ، مدرسة الكوفة ٣١٢ وهذه إضافة جديدة من خلال معجم العين .

(٤) المنظومة ١٨٥ .

(٥) ١٥/٥ .

« وأما القطّ الذى فى موضع : ما أعطيته الا عشرين درهماً قطّ فإنه مجرورٌ فرقاً بين الزمان والعدد » ومثاله الوارد فى المنظومة دليل قاطع على هذا القصد الموجود فى المثال السابق عندما يقول^(١) :

لم يأتنى إلا بخمسة أسهم .: قطّ الغلام وقال يوشك يعقب
والذى يقارن بين المثالين :

لم يأتنى إلا بخمسة أسهم قطّ الغلام { الوارد فى المنظومة } والمثال الوارد فى العين .

ما أعطيته إلا عشرين درهماً قطّ

يدرك أن المقصود بقط العدد لا الزمان ، وهذا على العكس من الواردة بمعنى الزمان الذى يقول عنها الخليل^(٢) :

فإذا أردت بها الزمان فرفعها .: أهيا وأتقن فى الكلام وأصوب
ويتمثل ما ورد فى المنظومة مع قول الخليل فى العين^(٣) :

« وأما (قطّ) { بالرفع } فإنه الأبد الماضى ، تقول : ما رأيته قطّ ، وهو رفع لأنه غاية^(٤) ، مثل قولك : قبل وبعد » ألا يدل هذا التشابه التام فى معالجة هذين البابين فى المنظومة وفى العين على أن ما ورد بالمنظومة إنما هو للخليل ، وأكبر الظن ألا يكون هذا التماثل الدقيق من قبيل الصدفة .

٥ - باب المجازاة :

من المهم أن نقف أمام باب المجازاة ، لأن الخليل استخدمه بشكل عام ودلالة واسعة . حيث يقول^(٥) :

(١) المنظومة ١٨٦ .

(٢) المنظومة ١٨٧ .

(٣) ١٤/٥ .

(٤) يلاحظ استخدام الخليل لمصطلح (غاية) وهذا دليل على أن المصطلح بصرى لا كوفى .

(٥) المنظومة البيتان ١٩٤ ، ١٩٥ .

فالقول إن جازيت يوما صاحباً .: صلنى أصلك وقيت ما تتهيب
إن تأتنى وترد أذى عامداً .: ترجع وقرنك حين ترجع أعضب
واستمر الخليل فى تمثيله لأدوات الشرط المختلفة ، لكن من الملاحظ أن
الخليل مثل للمجازاة فى نوعيها :

النوع الأولى : الجواب بعد الطلب لم الأمر والنهى لم فى قوله : لم صلنى
أصلك لم حيث جزم المضارع فى جواب الطلب لتوافر الشروط التى اشترطها
النحاة وهى ، أن يكون الطلب سابقا للجواب ، وأن يكون الجواب مترتبا على
الطلب ، ولا يشترط مع المثال الوارد لم الواقع فى جواب الأمر لم أن يكون الأمر
محبوباً ، فهذا الشرط مع النهى فقط ومع ذلك فهو أمرٌ محبوب .

النوع الثانى : الجواب الواقع بعد أداة الشرط ، وقد مثل لذلك بأمثلة كثيرة
منها : إن تأتنى وترد أذى عامداً ترجع ومنها أيضا : من يأت عبداً
الله يطلب رفته يرجع . . .

ونلاحظ أيضا أن المثال الأول الذى مثل به الخليل كان للحرف (إن)
فهو متقدم على غيره ، وهذا متسق تماماً مع ما أورده سيبويه عن الخليل عندما
قال^(١) : « وزعم الخليل أن لم إن لم هى أم حروف الجزاء ، فسألته : لم قلت
ذلك ، فقال : من قبل أنى أرى حروف الجزاء قد يتصرفن فيكن استفهاماً ،
ومنها ما يفارقه فلا يكون فيه الجزاء وهذه على حالة واحدة أبداً لا تفارق
المجازاة » ، وللخليل حق فى ذلك ف (إن) لا تخرج عن الجزاء أما بقية
الحروف فيمكن أن تخرج إلى الاستفهام مثل : « متى ، ما ، من » ومنها ما
يفارق الجزاء والاستفهام مثل (ما) مثلاً التى تكون موصولة أو زائدة . . . إلخ .
وقناعة الخليل بذلك جعلته يأتى بها فى أول الأدوات عندما مثل لأدوات
الشرط .

(١) الكتاب ٦٣ / ٣ .

وللخليل تفسير خاص لجزم الفعل المضارع فى جواب الأمر كما فى
 لم صلتى أصلك لم أو فى جواب النهى مثل : لا تفعل يكن خيراً لك أو فى
 جواب الاستفهام مثل : ألا تأتىنى أحدثك ؟ وكذلك فى جواب التمنى مثل :
 ليتته عندنا يحدثنا ، وفى جواب العرض مثل : ألا تنزلُ تصبُ خيراً ، وبعد أن
 أورد سيبويه الأمثلة السابقة وأمثلة أخرى أراد أن يفسّر سبب هذا الجزم عنده
 وعند الخليل فقال^(١) : « وإنما انجزم هذا الجواب كما انجزم جواب إن تأتى ،
 بأن تأتى ، لأنهم جعلوه معلقاً بالأول غير مستغن عنه إذا أرادوا الجزاء ، كما
 أن إن تأتى غير مستغنية عن آتاك ، وزعم الخليل : أن هذه الأوائل كلها فيها
 معنى إن ، فلذلك انجزم الجواب ، لأنه إذا قال ائتنى آتاك فإن معنى كلامه إن
 يكن منك إتيان آتاك ، وإذا قال أين بيتك أزرك فكأنه قال : إن أعلم مكان
 بيتك أزرك » هكذا كان تفسير الخليل الذى وافقه سيبويه فى تفسيره بناء على
 رأى أستاذه فالجزم بتقدير (إن) مع الأمر والنهى والاستفهام والعرض والتمنى
 ولعل ذلك كان سبباً من أسباب جعل (إن) أمّ الباب .

وفى كتاب الجمل^(٢) أشار الخليل إلى الجزم فى جواب الطلب ، وجاء
 بالآيات والأمثلة الواردة فى كتاب سيبويه ، وأشار أيضاً إلى جواز الرفع فى
 جواب ما مضى ، كما فعل فى الكتاب تفصيلاً غير أنه لم يفسّر سبب الجزم ،
 فقط أشار إلى انجرام الأفعال الواقعة جواباً ، ويبدو أنه لم يكن فى حاجة إلى
 تفسير ذلك حيث كان كتاب (الجمل) مجملاً لحالات نحوية خاصة بالإعراب
 دون اللجوء إلى ذكر تعليلات فيه ، وربما كان حريصاً على تبويبه وعدم
 الإغراق فى ذكر تعليلات أو تفصيلات . ولعل ذلك هو المراد عندما قال فى
 المنظومة^(٣) :

والرفع فى (الإثنين) بالألف التى .: بينتها لك فى الكتاب مَبُوب

(١) الكتاب ٩٣/٣ .

(٢) الجمل ١٩١ - ١٩٣ .

(٣) المنظومة البيت ٢٩ .

يتناول الخليل هذا الدرس النحوى تحت عنوان : باب التعجب ، وهو المدح والذم قائلًا^(١) :

فإذا ذممت أو امتدحت فنصبه .: أولى، وذلك- إن قطعت- تعجب ما أزين العقل الصحيح لأهله .: وأخوك منه ذو الجهالة يغضب

لا يمكن القول بأن العنوان وضع خطأ ، وذلك بسبب ذكره أن التعجب هو المدح والذم ، فالأبيات التى تندرج تحت هذا العنوان لا تعطى فرصة لهذا التخيّل ، والسؤال الذى يطرح نفسه أماننا الآن هو : هل للمدح والذم علاقة بالتعجب ؟ أو هل التعجب من شىء ما يمكن أن يعطى مدحاً له أو ذمّاً ؟

لنذهب إلى بعض النحاة لنعرض رأيهم ثم نعود إلى الخليل مرة أخرى يقول الرضى^(٢) « واعلم أن التعجب انفعال يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببه ، ولهذا قيل إذا ظهر السبب بطل التعجب » هل يمكن أن يكون هذا الانفعال نوعاً من المدح أو الذم حيث يكون الشعور رضا أو غضباً ، يقول ابن يعيش^(٣) « اعلم أن التعجب معنى يحصل عند المتعجب عند مشاهدة ما يجهل سببه ، ويقل فى العادة وجود مثله ، وذلك المعنى كالدهش والخيرة » هل يكون معنى الدهش والخيرة المشار إليهما نوعاً من المدح أو الذم ؟ يشير سيبويه إلى المثال الذى يقول : ما أحسن عبد الله ثم يقول^(٤) : « زعم الخليل أنه بمنزلة قولك : شىء أحسن عبد الله ، ودخله معنى التعجب . وهذا تمثيل ، ولم يتكلم به » هل يمكن الإحساس بالمدح فى مثل هذا المثال ، ويكون

(١) المنظومة البيتان ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) شرح الكافية ٣٠٧/٢ .

(٣) شرح المفصل ١٤٢/٧ .

(٤) الكتاب ٧٢/١ .

الإحساس بالذم فى مثل قولنا : ما أسوأ هذا الطقس مثلاً . لعل ما أورده المبرد من هذا القبيل حينما يقول^(١) : « فإن قال قائل : رأيت قولك : ما أحسن زيدا ، أليس فى التقدير والإعمال - لا فى التعجب - بمنزلة قولك : شىء حسن زيدا ، فكيف تقول هذا فى قولك : ما أعظم الله يا فتى وما أكبر الله ؟ قيل له : التقدير على ما وصفت لك . والمعنى : شىء عظم الله يا فتى ، وذلك الشىء الناس الذين يصفونه بالعظمة ، كقولك : كبرت كبيراً وعظمت عظيماً » وما وصف الناس هذا إلا نوع من المدح والتعظيم للمولى عز وجل . ولعل تفسير الخليل وتعليقه فى كتابه (الجمل) على المثال نفسه الذى أورده فى الكتاب يقربنا من تلك الدلالة . يقول الخليل^(٢) : « قولهم : ما أحسن زيدا ، وما أكرم عمرا ، وهو فى التمثال بمنزلة الفاعل والمفعول به . كأنه قال : شىء حسن زيدا . وحدّ التعجب ما يجده الإنسان من نفسه عند خروج الشىء من عادته » ونحن نعلم أن خروج الشىء من عادته إنما يكون خروجاً إما إلى زيادة أو نقصان وهنا يكون مثاراً للمدح أو الذم . وإن دل هذا المعنى لدى الخليل - إن كان ذلك مقصوداً - على شىء ، فإنما يكون دالا على أن الخليل كان يربط النحو بالدلالة ، وهذا نهج جيد .

٧ - قضايا نحوية واقعة تحت باب حروف الجر :

تحت « باب حروف الجر » ، وبعد أن ذكر الخليل نماذج كثيرة لها قال^(٣) :
وتقول فيها خيلنا وركابنا .: من خلفنا أسدٌ تزار وأذوب
وتقول فيها ذو العمامة جالس .: والنصب أيضا إن نصبت تصوب
وعليك عبد الله - فاعلم - مشفق .: ما فيه إلا الرفع شىء يعرب
ما إن يكون النصب إلا بعد ما .: تم الكلام وحين ينقص يرأب

(١) المقتضب ١٧٦/٤ .

(٢) الجمل ٤٩ .

(٣) المنظومة الأبيات ٤١ - ٤٤ .

والقضية المطروحة هنا بوقوع الحال من المبتدأ والدلالة فى مثل : فيها ذو العمامة جالس لم ويجوز جالساً لم ، وفى مثل : عليك عبد الله مشفق لم لا يجوز إلا الرفع لم ، وقد تناول سيبويه هذه القضية تحت عنوان : « هذا باب ما ينتصب فيه الخبر لأنه خبر معروف يرتفع على الابتداء ، قدمته أو أخرته »^(١) ومثل لذلك بقوله^(٢) : « وذلك قولك : فيها عبد الله قائماً وعبد الله فيها قائماً ، فعبد الله ارتفع بالابتداء ؛ لأن الذى ذكرت قبله وبعده ليس به ، وإنما هو موضع له ، ولكنه يجرى مجرى الاسم المبنى على ما قبله ، ألا ترى أنك لو قلت : فيها عبد الله حسن السكوت وكان كلاماً مستقيماً كما حسن واستغنى فى قولك : هذا عبد الله ، وتقول : عبد الله فيها فيصير كقولك : عبد الله أخوك ، كأنك قلت : عبد الله منطلق فصار قولك فيها كقولك : استقر عبد الله ، ثم أردت أن تخبر على أية حال استقر فقلت : قائماً ، فقائماً حال مستقر فيها ، وإن شئت ألغيت فيها فقلت : فيها عبد الله قائم » .

ومثال الخليل يعطى الدلالة نفسها حين يقول : فيها ذو العمامة جالس لم أو جالساً لم حيث يجوز لم فيها ذو العمامة لم ، واستطرد سيبويه قائلاً^(٣) : « ومثل قولك : فيها عبد الله قائماً ، هو لك خالصاً ، وهو لك خالص ... » ثم أكمل التمثيل بقوله : « ومثل ذلك : مررت برجل حسنة أمه كريماً أبوها ، زعم الخليل أنه أخبر عن الحسن أنه وجب لها فى هذه الحالة ، وهو كقولك : مررت برجل ذاهبة فرسه مكسوراً سرجها ، والأولى كقولك : هو رجل صدق معروفاً صدقه ، وإن شئت قلت معروف ذلك ، ومعلوم ذلك لم بالرفع لم على قولك ذاك معروف وذاك معلوم سمعته من الخليل » .

(١) الكتاب ٨٨/٢ .

(٢) الكتاب ٨٨/٢ ، ٨٩ (بتصرف) .

(٣) الكتاب ٩١/٢ .

والملاحظ أن سيبويه قد طرح هذا الجانب من القضية مع إيراد كل هذه النماذج والأمثلة ، ثم أنهى كلامه بأنه سمع ذلك من الخليل ، وهذا يوضح أن ذلك رأى الخليل نقله عنه تلميذه سيبويه الذى ذكر الخليل مرتين خلال هذه القضية بل إنه نسب له هذا رأى فى مواضع أخرى . فقد ذكر سيبويه هذين المثالين :

هذا أول فارسٍ مقبلاً .

هذا رجل منطلقا .

وعلق سيبويه قائلاً^(١) : « وزعم الخليل أن هذا جائز ، ونصبه كنصبه فى المعرفة ، جعله حالا ، ولم يجعله وصفاً ، ومثل ذلك : مررت برجلٍ قائماً ، إذا جعلت المجرور به فى حال القيام ، وقد يجوز على هذا : فيها رجل قائماً ، وهذا قول الخليل رحمه الله » .

وهذا الشق الأول من القضية طرحه سيبويه ونسبه إلى الخليل صراحة فى أكثر من موضع ، وقد أسهنا فى النقل عن سيبويه لبيان رأى الخليل كاملاً فى هذا الجانب من القضية .

أما الشق الثانى من القضية ، فهو عدم جواز النصب فى مثل : عليك عبدُ الله مشفق ، فلا يجوز نصب (مشفق) ؛ لأنه لا يجوز الاكتفاء بقولنا : عليك عبد الله ، وكلام الخليل يحسم الأمر عن طريق أسلوب القصر الوارد فى قوله :

ما فيه إلا الرفع شىء يعرب

وقد أشار سيبويه إلى مثل ما قاله الخليل فى قوله^(٢) : « وأما بك مأخوذ زيد ، فإنه لا يكون إلا رفعاً ، من قبل أن بك لاتكون مستقراً لرجل . ويدلك

(١) الكتاب ١١٢/٢ .

(٢) الكتاب ١٢٤/٢ .

على ذلك أنه لا يستغنى عليه السكوت » ثم قال بعد قليل^(١) : « ومثل ذلك : عليك نازل زيدٌ ، لأنك لو قلت : عليك زيد ، وأنت تريد النزولَ لم يكن كلاماً » . وهذا يتماثل مع عدم جواز عليك عبد الله وتريد الإشفاق ، ولهذا لا يجوز إلا الرفع .

ولو قرأنا ما جاء فى كتاب الجمل لوجدناه مشابهاً تماماً لما جاء فى الكتاب حتى فى بعض أمثله ، يقول الخليل^(٢) :

« فى الدار زيد واقف . وإن شئت (واقفا) ، الرفع على خبر الصفة ، والنصب على الاستغناء وتام الكلام . ألا ترى أنك تقول : فى الدار زيدٌ ، وقد تمّ كلامك ، وإذا لم يتمّ كلامك فليس إلا الرفع : بك زيد مأخوذٌ ، وإليك محمدٌ قاصدٌ ألا ترى أنك إذا قلت (بك زيدٌ) لم يكن كلاماً حتى تقول (مأخوذ) » وبالمقارنة بين ما ورد عند سيبويه نجد المثال نفسه : بك زيد مأخوذ . هل يمكن أن يكون ما ورد لدى سيبويه من قبيل المصادفة ، أم أنه متأثر بأستاذه الخليل ، على أية حال فقد نسب سيبويه الشق الأكبر من كلامه للخليل صراحة ، وترك الشق الأصغر دون نسبة . وإن كان يبدو لنا أنه كلام الخليل أيضاً بدليل ما ورد فى الجمل له .

لكن العجيب فى الأمر أن الخليل قد أورد هذه القضية فى المنظومة تحت عنوان « حروف الجر » وسيبويه أوردتها تحت باب « باب ما ينتصب فيه الخبر » ، وقد وردت فى الجمل تحت عنوان « الرفع بخبر الصفة » . ترى هل كان الخليل محققاً لأن القاسم المشترك فى كل الأمثلة الواردة هو الجار والمجرور الواقع خبراً فى حالة اكتمال الدلالة به ، أو المتعلق بالخبر فى حالة عدم اكتمال الدلالة فى مثل : بك زيد مأخوذ ؟ ووجود الجار والمجرور (الصفة) ضرورى فى هذه الجملة ، لهذا جاء الخليل بهذه القضية تحت هذا الباب .

(١) المصدر نفسه .

(٢) الجمل ١٣٩ .

الجانب الدلالي في هذه القضية :

من خلال العرض السابق نرى الخليل يراعى الجانب الدلالي نقصاً أو اكتمالاً ، فالإعراب - كما يظهر - مبني على الجانب الدلالي ، والخليل لا يكتفى بإيراد الأمثلة الدالة في هذا الموطن فقط ، بل يشير صراحة إلى ذلك بقوله^(١) :

ما إن يكون النصب إلا بعد ما .: تم الكلام وحين ينقص يرأب
ومن هنا فالاكتمال الدلالي لجملة : لم فيها ذو العمامة لم جعل كلمة
(جالس) يجوز فيها الرفع على أنها هي الخبر أو النصب على أنها حال . حيث
يمكن اعتبار : فيها ذو العمامة خبراً مقدماً ومبتدأً مؤخراً ، لهذا يجوز النصب
لأن الحال يكون بعد اكتمال المعنى (فضلة) .

أما النقصان الدلالي في قوله : عليك عبدُ الله (برفع عبد) فقد أدى إلى
وجوب رفع (مشفق) على أنها هي الخبر وعلى هذا يكون المعنى عبدُ الله
مشفق عليك ، إذ لولا وجود كلمة (مشفق) لم يكن هناك معنى مكتمل فلا
يجوز النصب لعدم الاكتمال الدلالي .

وظاهرة الاكتمال أو النقصان الدلالي مجسدة في ثنايا النحو العربي في
أبواب نحوية كثيرة ، فقد استخدمها الخليل - كما رأينا - في باب التعجب ثم
في باب حروف الجر والقضايا المتعلقة به ، ثم في معنى الغاية الذي يتجسد في
جملة حتى وما يترتب عليها من إعراب ما بعد حتى إذا كانت للغاية ، ولعل
هذا جميعه يطرح الموضوع للدراسة بشكل أوسع في أبواب النحو العربي . إننا
نقول : عبد الله أخوك حيث يعرب (عبد) على أنه مبتدأ و (أخو) خبر مع
وجود المضاف إليه في كل عنصر منهما ، فإذا ما قلنا :

(١) المنظومة البيت ٤٤ .

عبد الله أخوك قادم

تغير المعنى فتغير الإعراب ، فتكون (قادم) هى الخبر ، أما (أخوك) فتصير بدلا أو عطف بيان ، ووجود كلمة (قادم) يجعل الجملة قبلها ناقصة وعدم وجودها فى الجملة أصلاً يجعل الجملة مكتملة ، ويكون الاعراب حسب السياق مع المعنى القائم فى الجملة ، إذ لا يمكن إعراب (أخوك) خبراً مع وجود (قادم) .

ولعل هذه الظاهرة تستحق الدراسة على مستوى النحو العربى لا على مستوى منظومة الخليل فحسب^(١) .

(١) هذا الاستطراد ألجأنا إليه ما هو مجسد بالمنظومة من قضايا عامة تستحق الدراسة ، تتصل هذه القضايا بالمعنى فى أوسع صورته .

obeikandi.com

سابعاً: الأمثلة والنماذج التطبيقية الواردة في المنظومة

هذه المنظومة النحوية التي وضعها الخليل في القرن الثاني الهجري لها من السمات والخصائص التي ينادى النحويون المحدثون بوجوب تجسيدها عند دراسة النحو لدى متعلميه في العصر الحديث ، ويبدو أن هذه المنظومة كان الهدف منها تعليمياً خالصاً ، لا عرضاً لآراء أو تقديماً لفلسفات نحوية أو قضايا خلافية ؛ لهذا ركزت هذه المنظومة بشكل لافت لنظر أى قارئ لها على الأمثلة والنماذج المتنوعة لاستخدام القواعد النحوية المختلفة ، فقد تنوعت الأمثلة للظاهرة الواحدة أو القاعدة الواحدة . ويبدو أن الخليل كان حريصاً على وضع هذا النهج للاقتداء به مستقبلاً ، وهذا يدل على طريقة صحيحة في الأداء ، ويدل أيضاً على أنه كان معلماً بارعاً ، وربما نفسّر بهذا سرّ الإقبال على الخليل من تلاميذه - كوفيين وبصريين - حيث كان يستخدم هذه الطريقة مع تلاميذه عند تعليمه إياهم .

إذن لم يكن الخليل ليكتفى بمثال واحد للظاهرة كما كان يفعل المتأخرون مما كتبوا منظومات نحوية كابن مالك والسيوطي ومن نماذج تكراره لأمثله قوله^(١) تحت عنوان { باب التاء الأصلية وغير الأصلية } .

والتاء إن زادت فخفض نصبها .∴ ما عن طريق الخفض عنها مهرب

(١) الآيات من ٨٦ - ٩٠ .

فتقول إن بنات عمك خرد .: بيض الوجوه كأنهن الربرب
وسمعت عمات الفتى يندبنه .: كل امرئ لابد يوماً يُندب
ودخلت أبيات الكرام فأكرموا .: زورى وبشّوا فى الحديث وقربوا
وسمعت أصواتا فجئت مبادراً .: والقوم قد شهرو السيوف وأجلبوا

نلاحظ أنه أتى بمثالين للتاء الزائدة فى حالة النصب وعلامته الكسرة
(الخفض) وهما لم يأت بنات عمك - وسمعت عمات الفتى لم كما أتى بمثالين
للتاء الأصلية وهما لم دخلت أبيات الكرام - سمعت أصواتاً لم ، ولعلنا نلاحظ
أنه فى البيت الأول تكلم عن التاء الزائدة فقط ، لهذا نلاحظ أنه قال بعد
التمثيل للتأين متحدثاً عن التاء الأصلية :

فنصبت لما أن أتت أصلية .: وكذاك ينصبها أخونا قطرب
وهناك ملاحظة تظهر فى التمثيل عند الخليل فى معظم نماذجه ، هذه
الملاحظة هى أنه يستمر مع مثاله إلى أن يعطى معنى من المعانى ربما كان حكمة
أو موقفاً إيجابياً لشيء من الأشياء ، مع أنه لو اكتفى بموضع التمثيل فقط لكان
المعنى كاملاً لا نقص فيه ، إلا أنه يفضل دائماً الاستمرار مع المعنى إلى أن
يكون شيئاً ذا بال ، والأمثلة السابقة خير دليل على ذلك عندما يمثل بقوله :
لم وسمعت عمات الفتى لم كان من الممكن الاكتفاء بذلك لكنه جاء بالجملة الحالية
لم يندبنه لم وكان من الممكن أيضاً التوقف عند هذا الحد ، لكنه أكمل البيت بتلك
الحكمة الواردة فى الشطر الثانى والتى تدل على براعة شديدة فى استدعاء
المعنى المتوافق مع المعنى السابق فقال :

كل امرئ لابد يوماً يندب

وهذا ما حدث فى البيت التالى عندما مثل بقوله : « ودخلت أبيات
الكرام » كان من الممكن الاكتفاء بهذا القدر ، من التمثيل حيث أعطى المثال

معنى مفيداً ؛ لكنه أكمل المثل بقوله : « فأكرموا زورى » بالعطف على ما قبله . وكان من الممكن أيضاً أن يكتفى بهذا القدر إلا أنه أثر أن يوضح بشاشة هؤلاء القوم بالإضافة إلى كرمهم فقال : « وبشّوا فى الحديث وقرّبوا » . فالخليل لم يترك المعنى إلا بعد اكتماله تماماً وبعد إعطاء صورة دقيقة لما يتحدث فيه . وهذه الطريقة جعلت أمثله تأخذ حيزاً أكبر من الأحكام النحوية من حيث الشكل العام للمنظومة وربما كان حرص الخليل على ذلك من منطق التركيز لا على القاعدة فحسب ، ولكن على المعنى أيضاً . وما قدمناه فى المثالين السابقين قليل من كثير ، فهذا هو النهج العام الذى اتبعه الخليل فى هذه المنظومة التعليمية .

كان الخليل حريصاً على أن يستوفى كل حالات الظاهرة التى يتكلم عنها تمثيلاً وتطبيقاً دون استيفائها بكلام نظرى لا تطبيق فيه ، ونماذج ذلك كثيرة . نأخذ منها ما ورد فى باب (المبتدأ وخبره) عندما قال^(١) :

وإذا ابتدأت القول باسم سالم .: فارفعه والخبر الذى يستجلب
فالمبتدأ رفع جميع كله .: ونعوته ولذاك باب معجب

ثم بدأ الخليل فى التمثيل فجاء بنماذج كثيرة متنوعة لهذا المبتدأ الذى عبر عنه الخليل بالاسم (السالم) الذى يعنى - كما أظن - الاسم الصالح لأن يكون مبتدأ ويصح الإخبار عنه ، فلا يكون نكرة ناقصة مثلاً ، كذلك أتى بنماذج متنوعة للخبر الذى استجلبه المبتدأ ، ولتأمل نماذجه كما يلى :

﴿ عمك قادم ومحمد ﴾

المبتدأ اسم معرف بالإضافة ، الخبر اسم فاعل (مشتق) مع مراعاة أن الإعراب أصلى فى الحالتين ، وكذلك فى كلمة (محمد) المعطوف .

(١) البيتان ١٢٩ ، ١٣٠ وانظر الأمثلة فى الأبيات التالية لهذين البيتين .

﴿ يزيد ذو ولد ﴾

المبتدأ معرف بالعلمية ، الخبر (ذو) ليس مشتقا ولكنه وضع موضع المشتق وأخذ معناه (صاحب) واكتملت شروطه فقد أضيف لغير الضمير ، مع ملاحظة أن الاعراب أصلى في المبتدأ فرعى في الخبر ، مع أنه لم يقل ذلك ولم يشر إليه .

﴿ عبد الله شيخ صالح ﴾ - ﴿ محمد حر ﴾

المبتدأ علم جاء مركبا تركيبا إضافيا في المثال الأول ، وجاء مفردا في المثال الثاني ، والخبر صفة مشبهة في المثالين .

﴿ الريح ساكنه ﴾ - ﴿ الشمس بازغة ﴾

المبتدأ معرف بالألف واللام ، والخبر مفرد .

﴿ نحن أولو جلال في الوغى ﴾ - ﴿ أنا ابن عبد الله ﴾

المبتدأ ضمير والخبر مضاف ، وجاء في (أولو) معربا إعرابا فرعيا ، وفي (ابن) جاء معربا إعرابا أصليا .

فقد جاء الخليل بأمثلة متنوعة مراعيًا الأشكال المتغيرة للمبتدأ والخبر دون أن يشير إلى تلك التفصيلات . ربما اعتمد في ذلك على المعلم الذي يقوم بتوجيه الطلاب وإرشادهم ، فلم يكن الخليل إذن يشقق القواعد النحوية ويفصلها بقدر ما كان يعتمد على التمثيل المتنوع مع ذكر القاعدة العامة في أول الأمر ، وهكذا كان يفعل ذلك دائما ، ويستطيع التأمل في أى باب أن يجد ذلك مجسدا في تلك المنظومة .

وهذه النماذج والأمثلة الواردة تعطى صورة علمية واجتماعية للخليل حيث

تظهر حكمته البالغة ، والحكمة فى أقواله ، وتدينه العميق ولعل ما ورد من
حكمة فى منظومته يتشابه مع ما ورد من حكمة فى أقواله الأخرى ولنقرأ
نموذجاً واحداً دالاً على حكمته العميقة يقول الخليل (١) :

لا خير فى رجل يعرض نفسه .: للذم لا . . لا خير فىمن يغضب
حكمة بالغة الأثر تدل على رجل تدرس بالحياة وخبرها جيداً ، أيضاً تدل
نماذجه على تقواه وإخلاصه وحبّه لدينه ، كما تدل على عمق إيمانه ، ولعل ما
ذكر سابقاً دال على ذلك . وسنكتفى هنا بنموذجين فقط حيث كثرت نماذجه
الدالة على صدق إيمانه والتزامه بشريعة الله التزاماً مطلقاً .
يقول (١) :

وتقول لا تدع الصلاة لوقتها .: فيخيب سعيك ثم لا تستعتب
ويقول أيضاً (٢) :

فأجب ولا تدع الصلاة جماعة .: إن الصلاة مع الجماعة أطيب
وقد كثرت نماذجه الدالة على ذلك (٣) :

كذلك تدل نماذجه وتمثيله على أن الخليل كان محباً للغزل فى أقواله ،
ويبدو أنه آمن بأن الأمثلة والنماذج لا بد أن تخرج عن مرحلة الجمود إلى التأمل
العقلى مرة ، أو التعامل معها بالقلب والمشاعر والأحاسيس مرة أخرى سواء
كانت أمثلة غزلية ، وهى كثيرة ، أو أمثلة تدخل فى حيز الأحكام الدينية
كالدعوة إلى الحرص على الصلاة فى وقتها ومع الجماعة . . . الخ . وكأنه كان
حريصاً على أن يقدم تلك المعانى للإفادة منها دينياً أو اجتماعياً أو نفسياً عن
طريق التسرية عن النفس ، كل هذا مع الإفادة الأصلية ، وهى الإفادة النحوية .

(١) البيت ٢٣٤ .

(٢) البيت ١٦٥ .

(٣) تناولت هذه القضية بالتفصيل تحت عنوان شخصية الخليل من خلال منظومته وأوردت كثيراً من
النماذج تدل على شخصية الخليل .

obeikandi.com

ثامناً: نتائج البحث

نستطيع - من خلال هذه الدراسة - أن نخرج ببعض النتائج التي لاحظناها وتوقفنا أمامها وهى :

(١) هذه المنظومة كشف جديد لعمل من أعمال الخليل ، وهو من هو فى حقل الدراسات اللغوية نحواً وصرفاً وأصواتاً وعروضاً ، تلك الأعمال التى يجب الاستمرار فى البحث والكشف عن بقية جوانبها من خلال كتبه المفقودة التى تشير إليها كتب التراجم .

(٢) المنظومة منهج جاد لتعليم النحو بشكل أكثر يسراً على الطلاب حتى ولو احتاج الأمر إلى معلم يكشف عن خباياها ونظامها .

(٣) من خلال دراسة المنظومة استطعنا تعديل بعض المفاهيم حول بعض المصطلحات النحوية التى نسبت خطأ إلى الكوفيين وشاعت تلك النسبة حتى اليوم ، إلى أن ظهر استخدام الخليل لها من خلال منظومته ، بل ومن خلال المقارنة بكتاب سيبويه وكتاب الجمل ومعجم العين .

(٤) التأكيد على أن الخليل مؤسس المدرسة البصرية ومؤصل قضايها النحوية والمؤثر الأول فى النحو الكوفى ، لأن الكوفيين تتلمذوا على يديه إما مباشرة مثل الكسائى الذى وافق الخليل فى كثير من آرائه أو من خلال كتاب سيبويه الذى يحمل فكر الخليل أيضاً .

(٥) الكشف عن صورة شخصية الخليل حكمة وتدينا وعن بعض جوانب حياته الاجتماعية ، وذلك من خلال النماذج والأمثلة التطبيقية الواردة فى المنظومة .